في مديح الجاموس الأبيض

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد بهي الدين

في مديح الجاموس الأبيض
محمد العبادي
(مجموعة قصصية)

ص. ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)
GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: (202) 25764276
website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

سلسلة كتابات جديدة
العدد (٩١) - مارس ٢٠٢٤م

رئيس التحرير
منير عتيبة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٢٤/٢٣٣٨٣م
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 4678 - 2

الطبعة الأولى الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢٤

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب أو بالإشارة إلى المصدر

مدير التحرير
أحمد توفيق

سكرتير التحرير
د. إكرامي فتحي

تصميم الغلاف
ناهد تاج

الإخراج الفني والمتابعة
محمد محمود سيد

المراجعة اللغوية
داليا فاروق

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مجموعة قصصية

في مديح الجاموس الأبيض

محمد العبادي

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٢٤

إلى أسماء زايد...

لم تكن هذه المجموعة لتكتمل

لولا الجهد المخلص للصديقين:

الكاتب/ إسلام علي حسن.   والكاتبة/ نادين أيمن.

لهما جزيل الشكر والتمنيات بالتوفيق.

في رواية أخرى للفلاح الفصيح

هذه حكايةُ فلاحِ حقلِ الملح[1] مع المدير العظيم للبيت "رنزي" بن "مرو":

كان المدير العظيم "رنزي" بن "مرو" خارجًا من بيته في "ننسو"؛ لينزل في قاربه الخاص بقاعة المحكمة، حين أوقفه فلاحٌ من فلاحي "حقل الملح" يُدعى "خنوم أنوب"؛ ليكلمه:

- يا سيدي، يا مدير البيت العظيم، لقد ظُلمت.

تعكَّر وجه "رنزي" حين رآه، لكن لما رأى من أبناء الشعب واقفين في الطريق، أخذه معه لقاعة المحكمة؛ ليسمع شكايته، فنال "رنزي" رضا الناس، وهتفوا له، ونعتوه بـ"العطوف" و"الحكيم" و"أبي الفقراء".

[1] الاسم الفرعوني لوادي النطرون.

شكا الفلاح لـ"رنزي" من ظلمِ أحدِ عماله المسمى "تحوت نخت" بن "أسري"، الذي قطع عليه طريقه، واغتصب حميره المحملة بخير الأرض من محاصيل وكتان وملح النطرون، زاد تعكر وجه "رنزي" من الفلاح حين سمع منه ما سمع، وأجابه:

- إن تحوت نخت رجل نظيف القلب، وهو في غنى عن ذلك القدر القليل من ملح النطرون الذي تدعيه عليه.

وقبل أن يرد الفلاح، أمر "رنزي" خدامه، فحملوه للخارج، وأوسعوه ضربًا.

لم ييأس الفلاح، بل عاد مرة بعد مرة للشكوى في قاعة المحكمة أمام المدير العظيم للبيت "رنزي"، وبينما هو يسمعه شكواه ويتضرع له بحق "ماعت"[١] المقدسة، نظر فوجد خصمه "تحوت نخت" جالسًا بجوار "رنزي" مع حكماء محكمته، فقال:

- انظر، لقد أصبح الصياد يستمع إلى شكوى طريدته، ويعطي الطير الذبيح لصاحب السكين؛ ليطلب منه تضميد جرحه، فعن بيتك - أيها المدير العظيم - انصرف العدل؛ حتى صار السارق ينظر في مظلمة المسروق!

فرد عليه "تحوت نخت" تحت رضا صاحب المحكمة:

- إنك فلاح كذاب، تتهمني في متاعك القليل بلا حجة أو دليل، انصرف ولا تعود لكذبك مرة أخرى؛ وإلا ألحقتك برب الصمت[٢]!

---

[١] رمز العدل عند الفراعنة.
[٢] رب الصمت هو الإله أوزوريس إله العالم الآخر، المقصود به التهديد بقتله.

فقال الفلاح:

- لن أُلحق برب الصمت، بل سألحق بابن الإله[1]، وهو من سينظر في مظلمتي، ويعيد لي حقي منكما!

وانصرف الفلاح غاضبًا، لكن قبل أن يخرج من قارب المحكمة هاجمه خدام "تحوت نخت" وأثخنوه بسكين؛ فأردوه قتيلًا.

فلما طال غياب "خنوم أنوب"، وانقطعت أخباره - جاء أهل حقل الملح؛ ليسألوا عنه في "ننسو" حيث ذهب، وحين عرفوا أنه اختفى من آخر مرة دخل فيها قاعة العدل تجمعوا أمامه، وصرخوا على المدير العظيم للبيت "رنزي"، وانضم لهم جمع من أهالي "ننسو"، الذين شعروا بالخوف والظلم.

ولما رأى "رنزي" بعينه الناس يهتفون باسمه ويصفونه بـ "الظالم" و"القاتل" ارتج عليه أمره، ولم يعرف كيف يرد عليهم، لكن "تحوت نخت" أخبره بما يقول.

خرج "رنزي" للناس، وقال:

- يا أهل حقل الملح، ويا أهل ننسو، إن ابنكم خنوم أنوب في خير كثير، فحين أعلمتُ الفرعون بن الآلهة بشكايته وفصاحته فيما قال أمر أن ترسل له شكاياته مكتوبة على لفائف البردي، وحين قرأها أمر برد مظلمته، وقربه منه، وجعله في مكان عظيم.

---

[1] الفرعون.

ففرح الناس؛ وعاودوا ووصفوا "رنزي" بالعطوف والحكيم وأبي الفقراء.

ما إن انصرفوا حتى مال "رنزي" على "تحوت نخت"، فسأله:

- ألن يكتشفوا الحقيقة؟

فرد عليه:

- من أين يكشفون؟ من أراد أن يعرف فليذهب ليسأل الفرعون، أما عنا فاطمئن، فالورق ورقنا، والدفاتر دفاترنا، يا مدير البيت العظيم.

الطواشية

السلطان جلال الدين محمد خشتار:... وتوسع في عهده في إنشاء الحمامات السلطانية، واستكثر من الطواشية...

المعدن المسبوك في تاريخ الملوك. ابن الحسني.

...

السلطان "خشتار"، قائد الجيوش، حامي ديار الدنيا وثغور الدين، أبو الرجال وأمير الأمراء، يدخل إلى قاعة حكمه؛ فيقف له كل رجالات الدولة منحنين، يصل إلى دست الملك، فيستوي عليه، ويُشير لهم بالجلوس، تتعلق به الأبصار حين يتكلم:

- حال البلاد والعباد لا يسر.. الشكاوى تجيء يوميًا؛ لتملأَ الديوانَ. ليعملْ كل منكم عمله.. أو ليعلمْ أن الحمامات السلطانية قد اتسعت أكثر.. ومحتاجة الكثيرَ من الطوَّاشيةِ.. الكثير...

الصمتُ يملأُ قاعةَ الحكم، الأمراءُ الكبارُ وقادةُ الجيوشِ يبتلعون شفاهَهُم مع كلماتٍ يتيمةٍ، يقَلِّبُ السلطانُ النظرَ فيهم، يُرجِعُ البصرَ مرتين قبل أن ينطقَ أمرَهُ:

- الأميرُ أبغا...

الأميرُ (أبغا)، محتسبُ العاصمةِ، وأمينُ الخزائنِ السلطانيةِ، يدخلُ من بابِ القاعةِ، يتبعُهُ اثنانِ من أتباعِهِ، يجدُّ الخطوَ، حتى ينحنيَ بين يديَ السلطانِ، بوجهٍ صارمٍ، تملؤه لحيةٌ سوداءُ كثَّةٌ.

- أبغا.. أظنُّكَ تُحدِّث نفسَكَ بأنِّي استدعيتُكَ؛ لأنصِّبَك على منصبٍ جديدٍ...

يردُّ عليه بنفسِ الوجهِ المتجهمِ:

- كلُّنا عبيدُ إحسانِك، يا مولاي...
- لكن مثلك.. لا يستحِقُّ الإحسان...

تسودُ القاعةَ همهماتٌ متوترةٌ، تُخرِسُها إشارةٌ من السلطانِ...

- شهور وأنت تقبلُ الرشاوي والبراطيلَ من كبارِ التجارِ؛ لتتركَهُم يعيثون في الأسواقِ فسادًا.. تركتُك؛ لعلَّك ترتدعُ وتعودُ.. لكنك استمررتَ في غيِّك؛ حتى غلبَكَ شيطانُك؛ فأقدمتَ على اختلاسِ المالِ من الخزائنِ السلطانيةِ...
- مولاي...
- لا تنطق.. خذوه...

حاول الأمير-بيأسٍ- أن يتهربَ من مصيرِهِ، امتدت يدُهُ بعفويةٍ إلى سيفِهِ، ليتذكرَ أنه خلَعَهُ على بابِ حضرةِ السلطانِ، وقبلَ أن يفكِّرَ في الفرارِ، أمسَكَ بذراعيهِ التابعان اللذان قدما معَهُ!!...

ما حدث بعد ذلك قد تكرَّرَ في البلاط عشرات، بل مئات المرات. جر الحراس "أبغا" جرًا إلى حجرةٍ جانبيةٍ، ينتظر فيها الطواشيُّ زهار، بأمواسِهِ وكلَّاباتِهِ، ونظرةِ التلذّذِ المفزعةِ على وجهِهِ، ووسط صرخاتِ الأميرِ، وسبابِهِ للسلطانِ وأهلِهِ، يجلسُ باقي رجالاتِ الدولةِ في سكونٍ ثقيلٍ، منهم من يكافحُ بقوةٍ كيلا يبلِّلُ سروالَهُ. بعدَ برهةٍ، يخرجُ "زهار"، لينحنيَ أمامَ السلطانِ، وبين يديهِ صحنٌ، به خصيتانِ، ملوثتانِ بالدمِ.

عبرَ نافذةِ مشربيةِ الحرملكِ، تنظرُ السلطانةُ وحولَها جوارِيها، بعيونٍ يملؤها البريقُ.

...

يعلمُ اللـهُ وحدَهُ من أينَ أتَى السلطانُ بهذِهِ الفكرةِ، لكنَّهُ منذُ تولَّى الحكمَ أمرَ ببناءِ المزيدِ والمزيدِ من الحماماتِ السلطانيةِ للحريم، وبدلًا من أنْ يلجأَ إلى الطواشيَّةِ الخصيانِ من العبيدِ، عمدَ إلى جعلِ هذِهِ الحماماتِ وسيلةَ عقابٍ، فمن يزغْ من الأمراءِ والقُوَّادِ ينتهِ بِهِ الحالُ خادمًا عنينًا في حضرةِ النسوةِ العرايا.

كثيرون منهم قتلوا أنفسَهُم، أو جُنُّوا، كثيرون اختفوا؛ فلم يُعثرْ لهم على أثرٍ، لكنَّ الأكثرَ آثروا السلامةَ والحياةَ مسلوبةَ الرجولةِ، فصاروا عبرةً، لمن أرادَ أن يعتبرَ.

...

على الرغمِ من الخطرِ الداهمِ على رجولةِ الأمراءِ فإنَّ أحوالَ البلادِ عادت للتراجعِ من جديدٍ، كلما مرَّت سنواتُ حكمِ خشتارُ زادَ عددُ الطوَّاشيةِ، لكنْ- ولدهشةِ العوامِ- زادَ الفقرُ وفسادُ الحالِ!!

حتى جولاتِ السلطانةِ، التي نزلتْ للأسواقِ – على غيرِ العادةِ – لضبطِ الأسواقِ لم تأتِ بأثرٍ.

...

السلطانةُ "جلنار" الجميلةُ، أمُّ الرجالِ-على صغرِهَا وشبابِهَا، منذُ أعتقَهَا السلطانُ واتخذَهَا زوجَةً، لمْ تكتفِ بدورِ سلطانةِ القصورِ، جولاتُها طويلَةٌ ومتعدِّدَةٌ؛ لنظرِ المظالمِ، وفحصِ الأحوالِ، وفي الليلِ، يحدِّدُ حديثَهَا مع السلطانِ أسماءَ الطواشيةِ الجددِ.

- الأميرُ سنقرُ الألفيُّ.. استولَى على أفدنةٍ منَ الأرضِ السلطانيةِ في مربطِ الخيَّالةِ...
- قائدُ الجيوشِ شاربك.. يختلسُ من أموالِ ميرةِ الجندِ.. ويتركُهُم على الكفافِ...
- الأميرُ داغرُ...

وفي نفسِ الليلِ، يحدَّدُ من يتقلدُ أعلى المناصبِ.

...

جولاتُ السلطانةِ – أعانَها اللـهُ وقوَّاهَا – جلَبَت لها دعاءَ العوامِ والحرافيشِ، وصارَت ممدوحةً في كلِّ مجلسٍ...

جولاتُ السلطانةِ، في الأماكنِ البعيدةِ والأسواقِ النائيةِ، كانت دومًا تنتهي لواحدٍ من القصورِ السلطانيةِ البعيدةِ عن العيونِ...

...

تزدادُ تأوهاتِ السلطانةِ أمِّ الرجالِ قوةً؛ حتى تصلَ للصراخِ، لكنْ تحتوِيهَا جدرانُ القصرِ البعيدِ، بينما يعتليها قائدُ الجيشِ بقوةٍ، وهي تتلوَّى تحتَهُ في انفجاراتٍ مجنونةٍ للشهوةِ...

بعدَ برهةٍ من لهاثٍ، تنظرُ لهُ السلطانةُ بنظرةٍ مليئةٍ بالشبعِ:

- من بينهم كلهِم.. أنتَ الأجدرُ بلقبِ رجلٍ.. وسيدِ الرجالِ؛ لهذا ستحصُلُ على لقبِ قائدِ الجيوشِ...
- ومن يا تُرى سيحصلُ على لقبِ طواشيٍّ جديدٍ؟

ضحكةٌ سلطانيةٌ مليئةٌ بالغنجِ:

- كثيرون.. عدةُ ليالٍ الآن.. لم يصلْ للمتعةِ السلطانيةِ سواكَ.. أما الباقون.. فلا يستحقون الإبقاء على رجولةٍ كاذبةٍ...

غذاءُ الملكِ

أخيرًا.. وبعد سنواتٍ من التذلُّلِ والخضوعِ بحثًا عن اللحظةِ المناسبةِ.. أخيرًا جاءت اللحظةُ.. اليومَ تمَّت ترقيتي من مجردِ خادمٍ للملكِ.. إلى رتبةِ "حاملِ غذاءِ الملكِ".

واليومَ تحديدًا سأقومُ بعمِلِي المقدسِ للمرةِ الأولَى...

غذاءُ الملكِ.. حين تُؤكلُ السُلطةُ بالملعقةِ.

***

تقولُ الحكايةُ المقدسةُ إنَّ غذاءَ الملكِ هُوَ الأساسُ، هو البدايةُ والمنتهَى، وجبةٌ واحدةٌ ذاتُ مقاديرَ سريةٍ لا يعلمُها إلا الملكُ وطباخُهُ الأخرسُ، من أكَلَ منها مرةً أعطتْهُ القوةَ والسُلطةَ معًا، ملعقةٌ صغيرةٌ

منها تكفي لتملأَ حياتَكَ بالقوةِ الروحيةِ والجسديةِ، فتصبحُ ملكًا على هذِهِ الأرضِ بلا نأمة رفضٍ من أهلِ الأرضِ وترابِها.

***

لم أكنْ لأحصلِ على فرصتِي لولا المزاجُ الشاذُ لهذَا الملكِ مقارنةً بأسلافِهِ.. جرتِ العادةُ عندَهُم أنْ يحملَ غذاءَ الملكِ يوميًا أجملُ "عذراواتِ" الوطنِ.. والكلُّ يعرفُ أنَّ وصفةَ الغذاءِ بلا أثرٍ على الإناثِ.. لكنَّ هذا الملكَ آثرَ أنْ يستمتعِ بجمالِ الغلمانِ على طعامِهِ.. فحوَّل "حاملةَ الغذاءِ" إلى "حاملِ الغذاءِ"

***

تصرُّ الحكايةُ المقدسةُ على أنَّ هذا الملكَ منْ النسلِ القديمِ الذي اكتشَفَ السرَّ الأولَ للوصفةِ من مئاتِ السنين، حين رآها الملكُ الأولُ في إلهامِ أحلامِهِ وجمعَ مكوناتِها عبرَ رحلاتِهِ في البراري البعيدةِ والوديانِ المظلمةِ.

لكنْ في أروقةِ القصرِ، تعرِفُ ما لا تذكُرُهُ كتبُ التاريخِ؛ إذْ يُقالُ إنَّ الملكَ الحاليَّ ليسَ من "النسلِ القديمِ"، بل هو من نسلِ خادمِ ملكٍ نجحَ في أنْ يغافلَ الطباخَ الخصيَّ الأخرس، ويتناولُ ما استطاعَ إلَيهِ

سبيلًا من الوجبةِ المقدَّسةِ، ما إن تناولَهَا حتى حلَّ علَيْهِ الإلهامُ؛ فعرِفَ كلَّ مكوناتِها في لحظةٍ.

***

هأنذا أستلمُ الوجبةَ المقدسةَ من الطباخِ الجهمِ.. أكادُ أعرفُ مكوناتِهَا من رائحتِهَا.. حارسان شديدان يوصِّلاني لبابِ المهجعِ الملكيِّ حيثُ غرفةُ الطعامِ.. إنْ حاولتُ أنْ ألمسَهَا أطارَا رقبتِي قبلَ أنْ أفعلَ.. لكنِّي بالطبعِ لنْ أفعلَ...

الفرصةُ الحقيقيةُ هي حينَ أكونُ وحدي مع الملكِ في مهجعِهِ.. يأخذُ الملكُ الشيخُ عدةَ ثوانٍ بين دخولِ حاملِ الغذاءِ وندائِهِ: "الغذاءُ، يا مولاي".. وبين وصولِهِ لَهُ...

***

أدخلُ للمهجعِ الذي كثيرًا ما دخلْتُهُ كخادمٍ.. أغلقُ البابَ أمامَ الحرسِ بحركةٍ مفاجئةٍ وأنا أنادي: "الغذاءُ، يا مولاي".. وفي ثانيةٍ فعلتُها.. الطعمُ الحريفُ والحلوُ في نفسِ الوقتِ يملأُ فمِي.. لسعةُ القوةِ في جسدِي.. عقلي يطيرُ من رأسِي إلى السحابِ.. أرى سنَى الحكمةِ تتلألأُ بين النجومِ...

يأتي الملكُ متبخترًا.. أنظرُ لهُ ببسمةِ النصرِ.. أرفعُ يديَّ وأهمُّ بـ... الألمِ الساخنِ على وجهي!!.. وأنا ملقَى على الأرضِ بلا حراكٍ.. الملكُ يخلعُ بنطالَهُ في تُؤَدَة:

- أبله مثلُهُم.. هل صدَّقْتَ حقًا أنَّ هناك وجبةً تمنَحُكَ العرشَ.. وأَتركُها بين يدي غليمٍ مثلِك؟

مدرسةٌ خاصةٌ

مدرسةُ "الطفلُ الخارقُ"

لجنةُ فحصِ الأطفالِ المتقدمين للالتحاقِ.

قاعةُ الاجتماعاتِ الكبرى بالمدرسةِ.

في منتصفِ المنصةِ تجلسُ مديرةُ المدرسةِ بنظارتِها شاسعةِ العدساتِ، على جانبيها رئيسُ مجلسِ أمناءِ المدرسةِ، ووكيلُ المدرسةِ لشئونِ الطلابِ المستجدين.

أمامَ المنصةِ، على مستوى أقلَّ -بالطبع- يجلسُ الطفلُ المتقدمُ وسطَ والدَيْه...

الأبُ أحمدُ يعدِّلُ وضعَ الكرافت بعصبيةٍ، وهو يتلعثمُ أمامَ النظراتِ الخارقةِ للمديرةِ:

- الحقيقةُ يا فندم.. إنَّ.. أنا مهندسٌ.. وحاصل على الماجستير في الـ.. إلكترونيات.. ومستوانا الاجتماعي.. الحمد للـه.. وكنت في بعثة للخارج للـ..

تقاطعه المديرة وهي تحكمُ تسليطَ نظاراتِها عليه:

- كل اللي حضرتك بتتكلم عنه ده مش مهم لشروط التقدم في مدرستنا يا.. باشمهندس.

ينقلُ نظرتَهُ الحائرةَ بينها وبين زوجته:

- أنا قصدي أوضح إن مستوانا العلمي والاجتماعي الـ...
- مش ده المهم عندنا.. طبعًا طالما عندك القدرة المادية إنك تدفع مصاريف المدرسة.. المهم عندنا.. مستوى الطفل نفسه.

آثرَ أحمدُ الصمتَ وهو ينظرُ بلا فهم، أما زوجتُه فاحتفظت بابتسامتِها الهادئةِ...

تبادلت المديرةُ نظرةً سريعةً مع عضوَيْ المنصةِ، قبلَ أن تشيرَ إلى شعارِ المدرسةِ الضخمِ المعلقِ على الحائِطِ خلفَها:

- أنت جاي تقدم لابنك يا أستاذ في أعظم مدرسة.. "أكاديمية الطفل الخارق".. يعني الطفل اللي يُقبل عندنا لازم يكون خارق.. مثلًا: بين الطلبة بتوعنا الأول على مستوى العالم في مسابقات الرياضيات المتكاملة.. بيقدر يحسب حاصل ضرب أي عددين من تسعتاشر رقم خلال نُص ثانية.. عندنا الطالب الأول في مسابقات السباحة في

العالم.. أرقامه أعلى من أرقام مايكل فيلبس في سنه.. عندنا طالبة تقدر ترسم خريطة أي دولة في العالم غيبًا.. ابنك بقى.. يقدر يعمل إيه؟

بُهت أحمدُ، نقلَ نظرتَه بين طفلِهِ "إياد" – المشغولِ باللعبِ في أزرارِ قميصِهِ الصغيرِ – وبين أمِّه الجالسةِ بنفسِ الابتسامةِ، مَنَحهَا نظرةً:

- إنتي جبتينا هنا ليه؟!...

فاكتفت برفعِ حاجبٍ بثقةٍ، قبل أن ترَبِّت على كتفِ طفلِها:

- ياللا يا بودو.. وريهم...

يومئ لها "بودو" ثم يفتح قميصه بحركة مفاجئة؛ لتتطاير أزراره ويظهر الزي الذي ارتداه تحته. زي "سوبرمان" بلونه الأزرق المميز، لكن مع حرف (I) على صدره، بدلاً من حرف الـ (s)، ثم يرفعُ يدَهُ بقبضةٍ مضمومةٍ في وضعِ الطيرانِ الشهيرِ.

ينظرُ أعضاءُ المنصةِ الثلاثةُ للطفلِ بدهشةٍ، قبلَ أن ينفجروا في نوبةِ ضحكٍ:

- واضح..هأهأهأ.. إنك فاهمة موضوع الطفل الخارق ده غلط خالص يا مدام.. هأهأهأ...

لكن، تنقطع ضحكتُها، في تلك اللحظةِ، يطيرُ "بودو"... يطيرُ بهدوءٍ وأريحيةٍ كما يليقُ بطفلٍ خارقٍ، يقفُ في منتصفِ فراغِ الغرفةِ، يشيرُ

بإصبعِهِ إلى شعارِ المدرسةِ الهائلِ الحجمِ المعلقِ خلفَ "اللجنةِ"؛ فيطيرُ الشعارُ بسرعةٍ، يندفعُ فوقَ رأسِ المديرةِ بسنتيمترات؛ لينقذفَ في أبعدِ أركانِ الغرفةِ، وقبلَ أن يجدوا وقتًا للاندهاشِ، يَفتحُ زرَّ بنطالِهِ، ويبدأُ في التبولِ من موقِعِه الفضائِيِّ، فيرسُمُ البولُ خطًا من اللهبِ على منضدَةِ "المنصةِ"، يكتبُ به اسمَه: "إياد".

تبتسمُ له والدتُهُ مُشَجِّعَةً:

- خلاص.. روح إنت بقى على البيت يا حبيبي.

يومئُ لها بودو، ويشيرُ بالتحيةِ لوالِدِهِ، قبل أنْ ينطلقَ طائرًا عبرَ إحدى نوافذِ القاعةِ، تتبعُهُ نظراتُ اللجنةِ وأبيهِ المذهولَةُ.

حتى يختفِيَ في الأفقِ...

التنين

حلمَ الفتى بنفسِهِ.. حلمَ بالتنينِ...

رغم عالمي الضيقِ الخالي من المعاني الواسعةِ.. فإنني أدركتُ ما هو التنين حين حلمتُ به.. ها أنا.. أنطلقُ عبرَ سماءِ العالمِ الواسعِ لا أدركُ له نهايةً.. ففي عالمِ التنينِ.. لا معنى للضيقِ...

***

ابن البواب...

أنا هنا في العالمِ الضيقِ. لستُ سوى ابنِ بوابِ عمارةٍ عاديٍّ في حياةٍ عاديةٍ.. بل حياةٍ منخفضةٍ تحتَ الجميعِ.. منخفضةٍ كمكانِ غرفةِ أبي المدفونةِ تحتَ سلَّمِ العمارةِ...

في عالمِ التنينِ.. أرى ألوانَ العالمِ الحقيقيةَ.. السماءُ حمراءُ ساخنةٌ.. السحبُ بنفسجيةٌ مشرقةٌ بذاتِها.. والشمسُ.. لا شمس.. فالتنينُ هو الشمسُ الحقيقيةُ لعالمِهِ...

أنا التنينُ أدركُ الحقيقةَ من اليومِ الأولِ.. أما أنا الإنسانُ فأدركُها عبرَ الأيامِ.. لكنَّ الإنسانَ يخدعُهُ عقلُهُ فيظنُّهُ حلمًا.. هو ليس حلمًا، وليسَ ارتباطًا بين كائنين.. بل الإنسانُ هو ظلٌّ للتنينِ.. أثرُهُ الصغيرُ في العالمِ الضيقِ.

***

كنتُ طفلًا حينَ أتَى أبي من بلدتِهِ في أعماقِ الصعيدِ؛ ليصبحَ بوابًا لعمارةٍ صغيرةٍ في منطقةٍ شعبيةٍ.. كان الحالُ أحسنَ حينَها.. كانَ أهلُ العمارةِ ينظرون لي بابتسامةِ رحمةٍ.. ويرونني إنسانًا مثلَهم.. لكن مع الوقتِ ترقَّى البوابُ.. ترقَّتِ العمارةُ؛ لتصبحَ برجًا سكنيًا ضخمًا في أرقى الأحياءِ.. ولم أترقَّ أنا.. أصبحَ "السكانُ" ينظرون لجسديَ الصغيرِ بنظرةِ اشمئزازٍ.. أو بلا نظرةٍ على الإطلاقِ.. كأنني جمادٌ آخرُ.. إصيصُ زرعٍ إضافيٌّ في مدخلِ البرجِ...

***

يظنُّ البشرُ بنظرتِهم القاصرةِ أنَّ نفثَ التنينِ للنارِ هو علامةُ غضبٍ أو وسيلةٌ للهجومِ على أعدائِهِ.. الحمقى لا يدركون أن التنينَ لا يغضبُ..

فلم يخلقْ في عالمِهِ ما يمكنُ أن يغضبَه.. ويقينًا لا يهاجِمُ أعداءَه.. فما هذا الذي يرقَى ليصبحَ عدوًا للتنينِ؟...

النارُ هي علامةُ السطوةِ والتوحدِ.. يُولدُ التنينُ طائرًا في الهواءِ، مسيطرًا على السماءِ الملتهبةِ والأرضِ الثلجيةِ.. يولدُ ضخمًا.. لكنَّ أثرَ الزمنِ فيه يجعلُهُ أضخمَ.. تتمددُ سطوتُهُ كلَّما تمددُ طولُ جناحَيْه.. وتنتشرُ النارُ من فمِهِ إيذانًا بقربِهِ من صورتِهِ الإنسانيةِ...

***

البوابُ هو البوابُ.. قرادةٌ صغيرةٌ جالسةٌ على بابِ العمارةِ.. يتعاملُ بأدبٍ جمٍ مع السكانِ.. بالأصحِ معَ الأوراقِ النقديةِ التي تتساقطُ من السكانِ.. عملُهُ الأساسيُّ ألَّا يعملَ شيئًا على الإطلاقِ.. يكفِيهِ أن يأمرَنِي؛ لأذهبَ في مشاويرِ شراءِ الحاجاتِ مكانَهُ.. ويصفعُ امرأتَهُ؛ لتمسحَ السلالِمَ، وتكنُسَ مدخلَ البيتِ.. وتساعدُ الساكناتِ المرفهاتِ في تنظيفِ شققِهِنَّ ونشرِ الغسيلِ، بينما يجلسُ هو ليدمنَ شيئًا ما.. يدمنُ شربَ السجائرِ.. شربَ الحشيشِ إذا تيسَّرَ.. يدمنُ النظرَ لمؤخراتِ الساكناتِ الممتلئةِ.. يرتدُّ نظرَهُ لي:

- أنت لسه مارحتش تجيب الحاجة؟

أنظرُ له كما يليقُ بتنينٍ ينظرُ لبوابٍ.. تفزعهُ نظرتِي.. يحاولُ أن يسيطرَ:

- قوم يابن ال...

ينطلقُ غضبِي.. تشتعلُ عيناي.. تنطلقُ النارُ من فمي تكادُ تشوي وجهَهُ.. التنينُ حقًا لا يغضبُ، ولا يهاجمُ.. لكن أنا الإنسانُ الذي تملَّكُهُ الغضبُ...

***

أبقى أنا.. أنا التنينُ ملكُ العالَمَيْن.. عالمي الواسعِ حيثُ لا يوجدُ غيرِي.. وعالمِ الإنسانِ الذي يظنُّ نفسَهُ ضعيفًا.. يظنُّ أن لَهُ أعداءً يجابهُهُم...

***

الشيخُ ذو الجلبابِ الأبيضِ.. اللحيةُ الطويلةُ والعصا الأطولُ.. يقرأُ عليَّ آياتٍ وأدعيةٍ، ويضربُنِي بالعصا ويصرخُ: اطلع...

الأبُ أقسمَ لهُم أنَّ جنًّا تلبَّسنِي.. وأنَّه رأى النارَ تخرجُ منِّي، ولا تؤذيني.. الشيخُ يضرِبُ بعصاهُ بكلِ قوةٍ.. وأنا أنظرُ له، وأضحكُ ضحكةَ التنينِ.. ترتعشُ العصا في يدِهِ.. نظرتُهُ العاجزةُ تضحكُنِي أكثر وأكثر.. أكتملُ أنا التنين، ويذهبُ ظلُ الإنسانِ الضعيفِ.. فتشملُ النارُ كلَّ شيءٍ...

سوشي

تنطُّ لتخربشَ الكنبة، وتقطِّعُ البياضاتِ التي تُغطيها.. قربَتْ أن تصلَ لقطنِ الشِّلت الداخِلِيِّ، ثم تنزلُ للأرضِ؛ لتحفرَ في الكليمِ كأنَّها تسِنُّ أظافِرَهَا فِيهِ.. أصرخُ عليها: لأ.. كخ كده يا سوشي.

لا تلتفتُ لِيَ القطةُ وكأنَّها ما سمعتنِي، أتذكَّر كيف كانت تُكلمُها صاحبتُها الأولى.. أحاولُ أن أقلدَها: "سوشي.. نو.. نو". تسكت لثوانٍ قليلةٍ.. أظنها سمعت كلامي، لكنَّها تنظرُ لي بعدمِ اقتناعٍ.. وتكملُ عضعضةً في رجلِ السرير...

منك لله يا مدام.. هي دي مكافأة نهاية الخدمة؟!

***

المدام كانت جميلةً جدًا وأنيقةً جدًا جدًا.. بنت ناس بحقٍ.. من عائلةٍ كبيرةٍ من القاهرة.. أبوها مستشارٌ أو ضابطٌ كبير هناك، لكن نصيبَها أن تتزوجَ، وتأتيَ مع زوجِها هنا؛ ليُكتبَ لي رزقٌ عندها.. أعملُ لها شغل البيت، وأطبخُ لها، وأمسحُ أمام بابِ الشقةِ.. كنت مبسوطة من شغلي معها.. وكانت أيامًا حلوة...

***

- رايحة فين يا أم أحمد؟
- رايحة الشغل...
- انتي قلتي لي بتشتغلي فين، يا أم أحمد؟
- هنا في الشركة.. شركة سيكلام...
- سيكلام؟!.. مش كنتي قلتي...
- سيكلام آه.. ماهو لما استغنوا عن أبو أحمد قدمت أنا على شغل.. قوم قبلوني عشان كان هو موظف عندهم قبل كده...

(الولية الحشرية) لم تقتنع.. أكمل في كلامٍ كثيرٍ؛ لأغطيَ على أسئلتِها وتسكت.. حتى أولادي لا يعرفون أني "أشتغل في البيوت".

***

أول ما أعطتني سوشي كانت ستموتُ من الجوع.. هي معتادةٌ على أكل مخصوص.. (دراي).. وأنا ليس عندي أكل مخصوص لعيالي، ولا للرجل

المريض.. مع الوقت تعودَتْ على بواقي الأكل والسمك الرخيص المسلوق.. ردت صحتها؛ حتى أصبحتْ (عِجلة صغيرة مش قطة)...

***

سيلا بنت المدام.. صاحبة سوشي الأصلية.. كانت هدية من أبيها.. سيلا شعرها كيرلي وجميلة كأمها، وتقول لي يا طنط.. طنط أم أحمد.. ميرسي طنط أم أحمد.. بليز طنط أم أحمد..

في يوم سألتني: "صحيح.. انتي اسمك بجد إيه يا طنط أم أحمد.. أي مين قبل ما يبقى عندك أحمد؟"

ضحكتُ وقلت لها: "اسمي على اسمك.. اسمي وسيلة".

***

من ساعة ما استغنوا عنه والرجل قاعد في البيت.. حمله ثقيل وعصبيته وقلة أدبه أثقل.. لكن معذور.. المرض عذره.. أكذب لو قلت إني كنت "ست بيت متستتة".. لكن على الأقل هو جنبي.. رجل يسندني بقوته، ويأخذني في حضنه آخر الليل.

أنظر لنفسي في المرآة...

***

أنظر لنفسي في المرآة الكبيرة في صالةِ بيت المدام.. أتأملُ جسمي.. لا زال حلوًا وأتعاجب.. ربنا يبعدنا عن الحرام.

- بتعملي إيه، يا ولية؟

صوته يفزعني.. زوج المدام (جلنف)؛ يتجول في الشقةِ حافيًا بفانلةٍ داخليةٍ مقرَّحة.. لا أعرفُ كيف غربِلتْ كل الرجالِ؛ لتختارَ هذا زوجًا.

- بتبصي على إيه؟!.. ده انتي الشيطان لو شافك يتوب.

يضحك مستظرفًا نفسه...

داهية تاخدك إنت واللي عندي في ساعة واحدة...

***

- سوشي واللا زفتة.. قطة الهانم دي.. بهدلتني وبهدلت البيت كله.. هرت العفش خربشة وعضعضة وشخاخ.. شوفي لك صرفة فيها لاحسن عليا الطلاق...

أسبقه قبل أن يكمل:

- خلاص يا أبو أحمد.. حاضر.. حاضر والنبي...

***

يوم ما أعطتني سوشي، كنت رايحة بعد يوم الإجازة؛ فلقيت البيت مبهدل جدًا.. والهانم لونها مخطوف وعيناها منفوختان ومحمرة.. صورة الزواج الكبيرة وقعت من مكانها.

- أنا خلاص يا أم أحمد.. حرجع القاهرة عند بابا.

دخلت سوشي ساعتها، وحاولت أن تتمسح فيها، لكنها أبعدت رجلها...

- خديها يا أم أحمد.. مش عاوزة أشوفها تاني.. كفاية قرف.

***

أخذتها في صندوق مخرم.. ركبت بها المشروع لأبعد مكانٍ؛ كيلا تعرفَ الطريق.. في شارعٍ جانبيٍ أخرجتُها.. (بصبصت) حواليها، ثم نظرتْ لي في خوفٍ و(نونوت) بصوتٍ خفيضٍ.. لأولِ مرةٍ (تنونو) لي.. نظرتُ لها، ووقفتُ مكاني.. ولم أعرفْ كيفَ أمشي...

هيستريونيك

ملاءةُ سريرٍ حمراءُ اللونِ:

خلاص...

خلاص...

خلاص...

- ***خلاص.. خلاص - يا فهمي - راحت.. راحت ومش حترجع تاني أبدًا...***
- ***إهدى بس.. بلاش اللي انت عامله في نفسك ده...***

سحابةُ عطرٍ:

معرضُ الكتابِ...

أولُ حفلِ توقيعٍ بعدَ حصولِي على الجائزةِ...

طابورٌ طويلٌ من القراءِ واقفين؛ للحصولِ على توقيعي.. وأنا جالسٌ أذكِّرُ نفسي أن أبتسمَ في وجهِ كلِ موقعٍ.. وأن أنظرَ في عينيه بودٍ.. وأن أسألَهُ عن اسمه.. وأن أكتبَ بأناقةٍ؛ كيلا أبدو في الصورِ كـ (عرضحالجي) جالسٍ على بابِ محكمةٍ...

خلفي أسمعُ صوتَ ناشري وهو يدندنُ بحكايتِهِ المفضلةِ: "قبل ما ياخد الجايزة كانت نسخ أيام صحراوية دي مالية المخزن عندي.. دلوقت بعد ما خدها.. أهو.. خلصنا الطبعة الخامسة والسادسة في تلات تيام.. وحيتّرجم لأربع لغات.. والله والزهر لعب معاك يا ابني.. هههههههه..."

يقهقه بصوتٍ عالٍ وهو يربِّتُ على كتِفِي بـ.. بلطفٍ.. أعطيتُهُ ابتسامةً من التي أعطيها لكلِ مُوقعٍ.. وعدْتُ للتوقيعِ.. لكنْ ساعتَها...

ساعتَها سحابةُ عطرٍ بزغتْ فجأةً.. عطرٌ ساطعٌ انتشرَ؛ فغطَّى على روائحِ الترابِ والعرقِ والجفافِ والثرثرةِ الثقيلةِ.. أنظرُ أمامي لمصدرِ سحابةِ العطرِ فأجدُها.. واقفةً في بهاءٍ.. وأشعةُ الشمسِ القويةُ من ورائِها.. فبدت كما لو كانت هي مشعةً بذاتِها.. تجمَّدْتُ ناظرًا لها لعدةِ

ثوانٍ.. حتى وضَعتْ نسخةً من الكتابِ أمامي.. وسمعتُ صوتَها لأولِ مرةٍ:

- خُد بالك.. أنا مش عايزة توقيع عادي.. أنا توقيعي لازم يكون استثنائي.. ده ممكن يكون أهم توقيع في حياتك.

ثم منحتني ابتسامتَها.

أنظر إلى حوائطِ الغرفةِ.. المرآةُ ذات السطح المغبَّرِ.. السريرُ ذو الملاءةِ الحمراءِ.. ويملأُني يقينٌ أن رائحةَ أنفاسِها الحلوةِ لن تملأَ هذه الغرفةَ مرةً أخرى...

- *أنا مش مصدق إنها سابتني.. كانت دايمًا بتقول إنها مش بتبعد غير مرة واحدة بس.. إنها لو سابتني مش حترجع تاني أبدًا.. أبدًا يا فهمي...*
- *كفاية جنان بقى.. هدي نفسك كده وخليك راجل...*

أخبار الثقافة:

عُقدتْ أمسِ بمقرِ مكتبةِ "نون" ندوةٌ لمناقشةِ روايةِ "سحابةُ عطرٍ"، التي تصدرت قوائمَ الأكثرِ مبيعًا لعدةِ أسابيعَ منذُ صدورِها، يُذكر أن روايةَ "سحابةُ عطرٍ" هي العملُ الثاني لكاتبِها، الذي حصُلَ في العامِ الماضي على جائزةِ "الشراعِ" الأدبيةِ عن عملِهِ الأولِ: "أيامٌ صحراويةٌ".

قاعةُ المكتبةِ الواسعةِ بمقاعدِها الكثيرةِ ضاقتْ بالزحامِ.. صارَ الوقوفُ أضعافَ الجالسين.. كلهم قدِ انتقلَ لهم شغفُ "سحابةُ عطرٍ"...

- ماقدرش أرد على أسئلتكم عن حقيقة طارق وريماس، وإن كانت قصة حبهما حقيقية واللا لأ.. بس اللي أقدر أقوله إن الحب أكتر حاجة حقيقية في الدنيا...

أنظرُ لها حيثُ جلستْ وسطَ الزحامِ وهي تحاولُ أن تشعلَ سيجارتَها.. تتلاقى نظراتُنا، فأكملُ:

- وأنا حياتي.. مليانة بالحب...

يتتبعون كلماتي ونظراتِنا.. ثم ينطلقون جميعًا في التصفيقِ...

- ***دي كانت أحلى حاجة في حياتي.. دي كانت حياتي كلها.. إنت مش متخيل...***
- ***لأ مش متخيل.. أنا متخيل بس البهدلة اللي بهدلتها لك.. دي مش كانت حياتك.. دي دمرت حياتك.. دمرتها...***

النغمُ المتنازلُ:

- إنتَ أحلى إنسان قابلته أصلًا.. بحسك مافيكش غلطة...

...

- كل يوم بتحلى في عيني زيادة.. لما بشوفك بحس إن.. بحس إني عاوزة أسيب نفسي ليك...

...

- أنا انبهرت بكتابتك من أول سطر...

...

- شكلك جميل.. ملامحك كلها نضج ووسامة...

...

- يعجبني نضجك.. شكلك أكبر من سنك.. وده بيديك قيمة كبيرة عندي...

...

- اللي يشوفك مايصدقش إن عندك ٣٠ سنة.. شكلك بقى أكبر من سنك بكتير...
- ودي حاجة حلوة واللا وحشة؟
- ممم.. مش عارفة.
- مانتي دايما بتقولي إن ملامحي ناضجة...
- بس كده بقت ناضجة زيادة عن اللزوم بصراحة...

...

- نخلف؟.. ونجيب بنت وتطلع شبهك.. يا خبر!!.. أصل انت ملامحك رجالي قوي.. لو جبت بنت شبهك عمرها ما حتتجوز.

...

- لما قريت روايتك بعد الانبهار ما راح لقيتها عادية.. وأقل من العادية كمان.. مش عارفة إدوها الجايزة على إيه؟

...

- مش بتفكر تلعب رياضة؟.. شكلك بقى مترهل جدًا وطلع لك كرش...

...

- مستغرب ليه أصلاً إنهم رفضوا يدوك المنحة؟!.. أنا كنت حستغرب فعلاً لو قبلوا...

...

- ياه!!.. شعرك إبيض وبيقع!!...

...

- الفرق بيننا بقى كبير قوي.. اللي بيشوفنا مع بعض دلوقت بقى يقول عليا بنتك مش مراتك...

- ***... دمرت حياتك...***
- ***لأ يا فهمي.. ماتقولش...***
- ***أقول أو ما أقولش.. دي الحقيقة وانت عارف كده كويس وإلا ماكنتش عملت كده.***
- ***يعني أنا السبب؟!***

رائحةٌ أخرى:

أحلى لحظاتِ العمرِ.. جسدي ممتزجٌ بجسدِها في تناغم هائلٍ.. نصلُ إلى قمةٍ وراءَ قمةٍ من آهات المتعةِ.. تضمُّني لها أكثرَ وأكثرَ.. تحتضنُني بين ذراعيها.. بين نهديها.. تحتضنُني داخلَ سحابةِ عطرِها.. لكن...

لكن تخترقُ سحابةَ العطرِ رائحةٌ.. رائحةٌ سمكيةٌ شنيعةٌ.. تتزايدُ حتى تطردَ العطرَ.. أخرجُ من أحضانِها، وأتلفَّتُ باحثًا:

- الريحة دي جاية منين؟!
- منك طبعًا.. ريحتك.. معقول مش عارف؟!

توخزُني نظرتُها اللائمةُ.. فيتطايرُ التناغمُ الهائلُ...

- **إنت كان لازم تطلقها من الأول.**
- **ماقدرتش يا فهمي.. بحبها.. ما قلت لك...**

- ***حتى بعد كل ده؟!***
- ...
- ***حتى بعد ما عرفتها على حقيقتها؟.. إنت عرفتها على حقيقتها.. ماتنكرش.***
- ***اسكت يا فهمي.***

الأكثرُ مبيعًا/ الأقلُ مبيعًا:

- ماينفعش ننشر الرواية دي.
- ليه؟
- عشانك.. إنت لو نشرت الكلام ده تبقى بتنتحر.. سوق النشر مش...
- دي روايتي وانا عاوزها تتنشر.. حسابات سوق النشر دي أنا مابفهمش فيها.
- إنت ما بتفهمش فيها؟!.. ده احنا بنتعلم منك يا راجل!.. الأول راهنت على المسابقة عشان تتعرف وتسمع في "أيام صحراوية".. وبعدين في "سحابة عطر" اشتغلت على النحنحة اللي بيحبها البنات بتوع الفيس بوك.. إنما إيه اللي انت بتعمله دلوقت ده؟!.."العطر المتطاير"؟!.. بقى بعد ما كل الناس حبوا الأبطال بتوعك وفرحوا بجوازهم جاي تهد ده كله؟!.. خيانة وخلافات ما بين الاتنين..

فضايح؟!.. وبعدين إيه اللغة دي؟!.. بقى "ريماس التي تمضي أنهار العطر من بين أصابعها" تحولها هنا لـ"ريماس اللعينة؟!"

- *إنت كنت عارف إنها إنسانة مريضة.*
- *اسكت، يا فهمي.*
- *هي" هيستريونك بيرسوناليتي" .. يعني: اضطراب الشخصية التمثيلي لو كنت نسيت المصطلحات.. وانت كنت عارف ده...*
- ...
- *تعلقها العاطفي والجسدي بيك مكانش حب.. ده كان مرض.. حالتها هي اللي بتخليها كده.. تصطاد الناس وتمتصهم نفسيًا وعاطفيًا.. زي ما عملت معاك كده بالظبط.*
- *لأ...*
- *لأ إيه؟ .. كل صفات الحالة كانت واضحة عليها.*
- *صفات الحالة؟ .. بطل كلام الدكاترة بتاعك ده...*
- *أداءها المسرحي في التعامل...*
- *اسكت...*
- *استخدام الإغراء الجسدي واللفظي...*
- *اسكت، يا فهمي...*

- ***وتعدد العلاقات الجنسية.***
- ***اسكت.. اسكت.. اسكت...***

العطرُ المتطايرُ:

- انتي قابلتي إبراهيم بدران؟
- لأ.
- فهمي شافكم مع بعض من يومين.
- فهمي شاف.. فهمي راح، فهمي جه.. إنت مش حتبطل الجنان ده، وتتكلم زي الناس الطبيعيين بقى؟!...
- قابلتي بدران ولّا لأ؟...
- وبعدين حتى لو قابلته.. هو صديقي وزميلي من زمان وانت عارف...
- صديقك وزميلك وحبيبك القديم كمان.. صح؟
- إنت بتكلمني كده ليه أصلاً؟!.. إنت لسه مصدق نفسك إنك جوزي وأحبك وتغير عليا؟!

كفاية بقى.. أنا زهقت منك أصلاً.. اسمع.. أنا مش بحبك.. مش بحبك، وعمري ما حبيتك أصلاً.. أنا ضحكت على نفسي كتير بس كفاية كده.. ابعد عني.. ابعد عني بقى...

ملاءةُ سريرٍ حمراءُ اللونِ:

- إنت كنت عارف ده كويس...
- أنا ماكنتش عارف حاجة.. ده تشخيصك إنت.. إنت الدكتور.. وإنت اللي كنت طول الوقت متحامل عليها.
- لأ كنت عارف.. وإلا ماكنتش عملت كده...
- عملت إيه؟!.. أنا ماعملتش حاجة!!.. هي اللي سابتني...
- لأ عملت.. بص للي عملته.. قدامك على السرير أهو.

أنظرُ للسريرِ بملاءتِهِ الحمراءِ.. لا.. ليستْ حمراءَ.. هي غارقةٌ في الدمِ.. دمُها يسيلُ من رقبتِها المذبوحةِ.. ونظرةُ الفزعِ تملأُ وجهَهَا الجميلَ.

- أنا عملت...؟.. لأ.. لأ.. قتلتها!.. إنت اللي قتلتها، يا فهمي!...
- وأنا وانت إيه؟.. شوف...

ألتفتُ له بسرعةٍ.. لأجدَ.. عينيَّ تحدقَّان فيَّ بفزعٍ.. عبرَ المرآةِ.

دراساتٌ اجتماعيةٌ

تقفُ "سلوى" أمامَ بابِ الشقةِ، تراجعُ الرقمَ، وقبلَ أن ترنَّ الجرسَ، تفتحُ حقيبتَها لا شعوريًا، تُخرجُ حقيبةَ المكياج؛ لتضعَ بعضَ الرتوشِ، لكن بينما تُعيدُ طلاءَ "روج" شفتَيْها تتذكَّرُ أنَّ الموعدَ "نظيفٌ" أصلًا، ولا يستدعي كلَ تلكَ التجهيزاتِ؛ فتضحكُ من نفسِها، وتعيدُ العلبةَ إلى حقيبتِها، وترنُ الجرسَ.

يُفتحُ البابُ؛ لتجدَ خلفَهُ "شيماء" صاحبةَ الدعوةِ، تستقبلُها بابتسامةِ ترحيبٍ، رغمَ النظرةِ الحادةِ التي تملأُ عينيها دومًا.

الشقةُ صغيرةٌ وأنيقةٌ، يشوبُها نمطٌ غريبٌ بأثاثٍ قاتمٍ وإضاءةٍ غيرِ مباشرةٍ، تجلسُ سلوى، وقبلَ أن تسألَ عن صديقتِهما الثالثةِ "نورهان"، تجدُها خارجةً من الداخلِ، مرتديةً زيًّا منزليًّا عاريَ الأكمامِ، ما أن تراها حتى تتهلَّلَ: "سلوى إنتي جيتي؟!" تعانِقُها وتقبِّلُها بترحابٍ ولا يبدو

عليها كثيرٌ من الحرجِ لجسدِها المكشوفِ، بدا الوضعُ مقلوبًا مع صاحبةِ البيتِ التي ترتدي ملابسَ رسميةً، بينما الضيفةُ ترتدي ملابسَ (على راحتها).. وزيادة، قرأتْ "شيماء" التساؤل في عيني "سلوى"...

- مانتي عارفة.. نورهان صاحبتي من زمان.. ومتعودة تكون هنا دايما... إنتي ازيك يا سلوى؟

مجاملاتُ الترحيبِ المعتادةُ، ثم حوارٌ مليءٌ بالحنين، كما يليقُ بصديقاتٍ التقين بعد عشرِ سنواتٍ من التباعدِ.

شيماء ونورهان حافظا على صداقتِهما، وتزاملا في العملِ بنفسِ الشركةِ.

سلوى صارتْ طبيبةً نفسيةً...

أما "علياء".. فـ...

- مين كان يصدق إننا لما نتقابل بعد السنين دي كلها.. نتقابل في جنازة علياء؟
- اللـه يرحمها.
- يااااه.. علياء؟!.. مين كان يتخيل إن علياء تموت كده؟!.. دي كانت زي الفل ولسة جايبة بنوتة زي القمر!!

لتصلَ شيماءُ فجأةً إلى السببِ الذي دعتْهُم من أجلِهِ لزيارتِها:

- هو.. لازم يموت.
- هو؟.. هو مين يا شيماء؟

- إنتي عارفة أنا قصدي على مين يا سلوى...

...

بالطبعِ كانت تعرفُ من المقصود...

الدرسُ الخصوصي.. في منزلِ الأستاذِ "أحمد".. الفتياتُ الأربعةُ جالساتٌ حولَ مائدةِ السفرةِ يتابِعْن شرحَ "الأستاذ" بتركيزٍ.. تركيز مبالغ فيه.. عيونُهُنَّ مصوَّبةٌ بقوةٍ نحو الأوراقِ التي يسطرُ عليها الأستاذُ تفاصيلَ المنهجِ.. يتبادَلْن نظراتٍ متوترةً.. رغم ابتسامةِ "الأستاذِ" المشرقةِ وتشجيعِهِ المستمرِ.. فإن كهرباءَ فاترةً كانت تملأُ جوَّ الغرفةِ.. حتى صرخته "برافو" كانت كافية لتصيبَهُنَّ برعشةِ فزعٍ.. كلما اقتربَ وقتُ "الحصةِ" من نهايتِهِ زادت الكهرباءُ في الجوِّ.. وزادتْ نظراتُهُنَّ ثباتًا نحوَ الأرضِ...

وفي النهايةِ:

- خلاص كده النهارده يا بنات.. مع السلامة يا حبايبي.. يا سلوى.. خليكي يا حبيبتي عشان أراجع معاكي الواجب بتاع المرة اللي فاتت...

...

نظرةُ شيماءَ الحادةُ تقتحمُ سلوى؛ بحثًا عن ردِ فعلِها، سعلةٌ خفيفةٌ قبلَ أن تردَ:

- يا شيماء ده موضوع انتهى من زمان.. أنا مش عارفة إنتي ليه مصرة تفتحيه تاني!...

- لأ مانتهاش.. وانتي أكتر واحدة عارفة إنه مانتهاش.. وكمان عارفة إن علياء ماتت بسبب ده.
- لأ طبعًا إيه الكلام ده؟!.. علياء ما...
- علياء انتحرت.. انتحرت يا سلوى وانتي عارفة ده كويس...
- أنا...
- البوليس بيحقق مع أهلها ومعارفها.. طبعًا مش هيحقق معانا لإننا مكناش قريبين منها.
- ...
- دي رسايلها معايا في الأيام الأخيرة.. بعد مالقينا بعض على الفيس.. كانت بتكلمني عن الاكتئاب الفظيع اللي حاسة بيه.. وإنها حتكلمك...
- ماكلمتنيش...
- بجد؟!...
- ماكلمتنيش يا شيماء.. ماكلمتنيش...
- إسمعي.. علياء ماتت بسبب ده.. هو.. هو السبب في موتها.. هو قتلها، ولازم يموت.. مش بس عشان علياء.. عشان لو ماماتش إحنا كمان حنحصلها...
- إنتي مكبرة الموضوع جدًا على فكرة...
- مكبرة الموضوع؟!.. إنتي بتدافعي عنه كده ليه؟!.. إيه؟!.. كنتي مبسوطة باللي بيعمله؟!.. مش بعيد...

- إخرسي!.. انتي.. انتي اللي الكره عماكي لما بقيتي عاوزة تدمري كل اللي حواليكي زي ما بتدمري نفسك.. وريني كده.. لابسة بكم ليه في الحر ده؟.. مش تاخدي راحتك زي صاحبتك؟

تُبهَت شيماءُ وتتراجعُ لاشعوريًا:

- أنتي مالكيش...

لكن سلوى تباغتُها وتشدُ كمَّ البلوزةِ لترفَعَهُ بعنفٍ؛ ليظهرَ ذراعُ شيماءَ وقد شوَّهَتْهُ جروحُ موسٍ قطعيةٍ عديدةٍ، تنهارُ مقاومةُ شيماءَ بعدما انكشفَ سرُّهَا، تجلسُ صامتةً، تدفعُها سلوى؛ لتختطفَ حقيبتَها الكبيرةَ وتَخرج، بينما نورهان تحتضنُ شيماءَ، وتربِّتُ عليها في صمتٍ...

***

تدخلُ سلوى شقتَها، تنطلقُ إلى غرفتِها مباشرةً، تغلقُ البابَ خلفَها بالمفتاحِ، تبتلعُ قرصين جديدين من مضادِ الاكتئابِ؛ ليصبحَ إجمالي ما ابتلعَتْه اليومَ أربعةَ أقراصٍ.

...

مضادُ الاكتئابِ هو اختراعٌ رائعٌ. بالطبعِ هو – ككل الأدويةِ – لا يقضي على الاكتئابِ.. لكن العبقريةَ تكمنُ في أثرِهِ.. أثرِهِ الذي يذهبُ بكلِ شيءٍ بعيدًا جدًا.. بعيييييدًا جدًا.. لا.. بل قريبًا جدًا.. يجعلُ كلَ الأشياءِ قريبةً لكنْ معزولةً.. كما لو أنَّها وراءَ حاجزٍ زجاجيٍّ سميكٍ

للغايةِ.. كل الأشياءِ.. الأفكارِ.. الذكرياتِ.. كلُ شيءٍ خلفَ هذا الحاجزِ الشفَّافِ...

- خلاص كده النهاردة يا بنات.. يا سلوى.. خليكي عشان أراجع معاكي الواجب...
- خلاص كده النهاردة يا بنات.. يا شيماء.. خليكي عشان...
- ... يا نور...
- ... يا علياء...

وهكذا في كل مرة.. تبقى إحدانا بدونِ ترتيبٍ مسْبَقٍ.. وهكذا تبقى كل منَّا في رعبٍ أن يقعَ عليها الاختيارُ.

- خلاص كده النهاردة يا بنات...

شهرٌ أو أكثرُ قبل أن أفهمَ أن كلَّنا نقعُ في نفسِ الفخِ بالتناوبِ...

- ...يا بنات.. يا سلوى...
- ... يا سلوى...

الهلعُ الحيوانيُّ البكرُ الذي يصيبُنِي حينَ أسمعُ اسمي من بينِ شفتيْه الرفيعتين.

- هو.. هو السبب في كل اللي احنا فيه.. هو.. هو السبب في موتها...

هو السبب في موتنا كلنا، يا شيماء.. موتنا المتكرر كل يوم.. علياء.. كانت تموت كل يوم.. كل لحظة قبل أن تصل للنهاية...

- مش قادرة، يا سلوى.. مش قادرة أنسى...
- أنا عارفة إنه مش سهل، يا علياء، بس لازم تقدري...
- الدكتور قال لي إنها حتطلع بنت يا سلوى.. السونار أكد له.. بنت تاني يا سلوى؟!.. ويحصل لها كده تاني؟!
- ماتفكريش كده.. اللي حصل لنا ده شيء شاذ مش بيحصل كتير...

ماذا لو كنتُ أخبرتُها بالحقيقة؟.. ماذا لو كنتُ أخبرتُها بأنَّ الشاذَ صارَ هو القاعدةَ.. وطوفانُ الحالاتِ التي تأتِينِي في العيادةِ يشهدُ على ذلك.. ماذا لو أخبرتُها.. بدلًا من:

- بعد الولادة حبقى اكتب لك مضاد للاكتئاب يا علياء.. وحتبقى كويسة...

حبوبُ مضادِ الاكتئابِ.. التي تناولَتْ منها زجاجةً كاملةً.. دفعةً واحدةً...

وأنا؟.. صار عالمي مليئًا بأجسادِ الرجالِ المشعرةِ.. ورائحةِ عرقِهِم.. وأشيائِهِم ذاتَ الملمسِ البشعِ.. منذُ أن أجبرَنِي على لمسِ شيئِهِ الضَّخمِ.. هل كان ضخمًا حقًا أم أنا التي كنتُ صغيرةً؟.. صغيرةً جدًا.. منذُ لمستُهُ صارَ الغثيانُ من أجسادِ الرجالِ.. كلِ الرجالِ.. حتى أخي.. غثيانٌ إلى ما بعدَ حدِّ التقيؤِ.. ليس فقط من الرجالِ.. بل والنساءِ وأجسادِهِن الناعمةِ أيضًا.. ورغمَ ذلك صارَ مفرِّي الوحيدُ أنْ أجرِّبَ المرةَ تلوَ المرَّةِ تلوَ المرةِ.. صارَ قدرِي أنْ أَنْتَهِكَ الجميعَ، وينتَهِكُنِي الجميعُ.. الجميعُ حتى...

- يا سلوى.. افتحي الباب.. أرجوكي - يا سلوى - افتحي الباب...

أخي.. أخي الصغيرُ يطرقُ بابَ الغرفةِ باكيًا.. مخلصًا في أداءِ دورِ جروِي الصغيرِ...

- سيبني دلوقت، يا ميدو، لو سمحت.. مش عاوزاك.. ومش عاوزة أكلم حد.
- لأ مش حسيبك، يا سلوى.. ماقدرش أسيبك أكتر من كده.. ماقدرش.. أرجوكي، يا سلوى...

صوت أمي تصرخُ من بعيدٍ لتبعدَهُ.. بينما أقراصُ مضادِ الاكتئابِ السحريةِ تلغي صوتَهُ تمامًا...

أنظرُ لجسدِي العارِي في المرآةِ.. الجسدُ الذي يرونَهُ جميلًا وشهيًا.. لأنَّهم لا يروْنَه على حقيقتِهِ.. لا يروْن أثرَ "لمساتِهِ" عليه.. رغمَ لمساتِ الآخرين الكثيرةِ.. فإنَّ "لمساتِهِ" الأولى هي التي بقى أثرُهَا حتى الآن.. تكبرُ معي كلَّما كبرتُ.. أراها كعروقٍ حمراءَ قاتمةٍ مليئةٍ بدم فاسدٍ وقرح.. تغطي أكثرَ ما يشتهونَهُ في هذا الجسدِ البائسِ.. كلَّما رأيتُهَا يتملَّكُنِي غثيانٌ لا فكاكَ منْهُ.. أحاولُ أنْ أغطِّي الأثرَ البشعَ بيديّ.. لكن بلا فائدة.. فالآثارُ واسعةٌ وقاتمةٌ.. أرَى وجهِي في المرآةِ وقدْ أغرَقتْه دموعٌ صامتةٌ.. يدي تمتدُّ لاإراديًا إلى زجاجةِ حبوبِ مضادِ الاكتئابِ.. أمسكُهَا.. أتأمَّلُها.. أتذكَّرُ الحلَ السحري الذي قدمَتْهُ هذه الزجاجةُ لعلياءَ...

***

هذهِ المرةُ بدونِ موعدٍ سابقٍ، وبدونِ مكياجٍ، ترنُّ الجرسَ، تفتحُ لها "شيماءُ" بنظرةٍ مندهشةٍ...

- هو لازم يموت، يا شيماء.. لازم يموت...

***

لم يكن الوصولُ لهُ صعبًا، بل ربَّما كان أسهلَ ممَّا يجبُ...

وقفَ الثلاثةُ أمامَ بابِ الشقةِ كئيبِ الشكلِ؛ ليجِدْن نفسَ اللافتةِ القديمةِ موجودةً على البابِ: "أحمد..... مدرس".

وقبل أن يفكِّرْنَ في الخطوةِ التاليةِ انفتحَ البابُ، انفتحَ عن سيدةٍ أربعينيةٍ تنظرُ لهنَّ بودٍّ...

أخذَت "شيماء" زمامَ الحديثِ:

- مش دي شقة الأستاذ أحمد؟
- آه هي.. أنا زوجته.. اتفضلوا...

تقدمَت "سلوى" كالمغيبةِ للدخولِ، تبعتْها شيماءُ، أمَّا نورهان فكانت ستهرُبَ لولا يدُ "شيماءَ" التي أمسكتْ بذراعِها. في الداخلِ قادتهم الزوجةُ إلى حجرةِ الصالون، بدَتْ على وجهِهَا ابتسامةُ ترحيبٍ بلاستيكيةٌ كما لو أنها تنتظرُ قدومَهُنَّ. بدَت "نورهان" على وشكِ الانهيارِ، خاصةً حين مرَّت أمامَ بابِ غرفةِ "السفرةِ" التي كانت مكانَ "الدرسِ"، تذكَّرَتْ "سلوى" أن "نورهان" في تلك الأيامِ كانت على العكسِ تمامًا، كانت أكثرهُن قوةً وشراسةً...

- أصل الأولاد لسه في الجامعة وانا لوحدي.. تشربوا إيه؟
- مالوش لزوم.. احنا مستعجلين.. هو الأستاذ مش موجود؟
- معلش.. أنا عاوزة اتكلم معاكم شوية.. خمس دقايق أعمل الشاي...

عبرَ تلكَ الـ "خمس دقائقَ" تبادَلْنَ النظراتِ وقد عاودهُن نفسُ الشعورِ القديم، شعورِ الدخولِ في المصيدةِ، الفكرةُ المشتركةُ التي جالت في أذهانِهن، أنَّهُنَّ لا يملِكْن خطةً، كلُّ تفكيرِهن وحديثِهنَّ انصبَّ على البحثِ عنه، لكنْ لم يفكرْن على الإطلاقِ فيما سيفعلْن بعدَ ذلك، وظهورُ الزوجةِ المفاجئُ لم يعطِ فرصةً للانسحابِ والتخطيطِ.

استمرت توسلاتُ "نورهان" للهربِ حتى عادَتِ الزوجةُ بأربعةِ أكوابٍ من الشاي؛ لتكملَ دورَ المضيفةِ المرحبةِ:

- أنا جبت السكر لوحده عشان طبعًا أنا معرفش سكركم إيه...

ردت "شيماء" بنفاد صبر:

- هو الأستاذ أحمد حيرجع إمتى؟

ارتسمت جدية مفاجئة على وجه الزوجة:

- أنا عارفة انتوا جايين ليه...

واصلت وسط نظراتهن المتوترة:

- أصل انتوا مش أول حد ييجي.. أنا بس حبيت أقعد معاكم وأقول لكم.. أنا آسفة.. أنا بجد ماكنتش أعرف...

أخرجت كيس الشاي من كوبها بالملعقة وأخذت رشفة صغيرة...

- أنا كنت دايما ببقى بره البيت يوم ثابت كل أسبوع.. بزور فيه والدتي.. هو كان مصر جدًا على ده.. مافهمتش إلا بعدها بسنين.. مافهمتش إلا لما اتنقلت وبقيت اخصائية اجتماعية في المدرسة بتاعته...

تبتلع سلوى ريقها؛ لتقاوم الغثيان قبل أن تنطق بصعوبة:

- وهو.. هو فين دلوقت؟
- مات...

انفجرتْ قنبلةُ صمتٍ في الغرفةِ، قبل أن تصرخَ "نورهان":

- مات؟!.. إزاي؟.. مات إزاي؟!
- أزمة قلبية بالليل.. جرعة زيادة من دوا القلب.. وطبعًا الدكتور اتأخر ومالحقوش...

رشفةُ شايٍ أخرى قبل أن تكملَ...

- أنا عارفة إنكم جايين عشان كده.. زي كتير جم قبلكم.. بس عاوزاكم تعرفوا إن حقكم ماراحش.. بالعكس.. فيه اللي خد حقكم.. وزيادة.. مكانش ينفع استنى لغاية ما يأذي ولادي.

***

حين خرجْن من بَيْتِه، مشَيْن في صمتٍ تام ووجوهٍ جامدةٍ. انطلقت دموع "سلوى" صامتةً في البدايةِ، ثم بدأَتْ في النشيجِ، قبلَ أنْ يتحولَ

الأمرُ إلى انفجارٍ حقيقيٍّ، انفجارٍ مدويٍّ من الدموعِ والصراخِ دفعَ سكانَ الشارعِ الهادئِ للخروجِ والنظرِ من نوافذِهِم؛ ليروا "سلوى" الغارقةَ في البكاءِ، و"شيماء" تحتضنُها محاولةً احتواءَ دموعِها...

كشفٌ مبكرٌ

أعبرُ قاعةَ الانتظارِ الكبيرةِ بخطواتٍ واسعةٍ.. أتجاهلُ وجوهَ المنتظرين الكالحةَ.. حتى أصلَ لمنصةِ الاستقبالِ الضخمةِ ذاتَ شعارِ: "معمل...".

أعطي الموظفةَ إيصالَ الاستلامِ.. تتفحصُني لثانيةٍ قبلَ أن تبتسمَ ابتسامةً آليةً، وتشيرُ لكراسِي القاعةِ:

- اتفضلي استريحي دقيقتين...

أجلسُ تاركةً كرسيًا فارغًا بجوارِي.. أُخرجُ هاتِفِي، وأنظرُ في شاشتِهِ؛ كيلا أصبحَ هدفًا سهلًا لمحبِي الثرثرةِ...

...

كلكوعة...

كلكوعة...

كلكوعةٌ صغيرةٌ في جانبِ الصدرِ.. صغيرةٌ جدًا.. أبحثُ عنها مراتٍ ومراتٍ، ولا أجدُها؛ حتى أَظنَّها مجردِ وهمٍ.. لكن حين تحسَّسَها الطبيبُ أيْقنْتُ أنَّها موجودةٌ حقًا.. صغيرةٌ جدًا.. لكنْ مؤلمةٌ.. ألمُهَا يصلُ مباشرةً إلى القلبِ.. فيزيدُ نبضاتِهِ...

- صغيرة جدًا.. حنعمل ماموجرام بس ماظنش حيأكد حاجة.. الأنسب ناخد عينة، ونبعتها المعمل...

...

هو...

هو كان أولَ من اكتشفَهَا.. لمسةٌ قاسيةٌ منه لجانبِ صدرِي.. شعرتُ معها بألمٍ وسطَ.. أحاسيسي الأخرى.. وسمعتُهُ يتساءلُ وسطَ لُهاثِهِ: "إيه ده؟"

بعد ما انتهينا، اقتربَ منيِّ، ومدَّ أصابِعَه إلى صدرِي مرةً أخرى.

- عاوز إيه تاني؟!
- فيه حاجة في صدرك...
- حاجة إيه؟!
- كلكوعة صغيرة كده...

انتفضَ قلبي حتى قبلَ أن يكملَ:

- صفية طلع لها حاجة زي دي في الأول برضه...

...

صفية.. أختي.. أختي المسكينة.. وكأن الستين اللتين جاءتها للدنيا مبكرًا كانتا مصدرًا للتعاسةِ لها.. حتى الاسم "صفية".. هي الكبرى؛ فأخذت اسم جدتِنَا.. لتعطيني فرصةَ الحصولِ على اسمٍ عصريٍّ: رنا...

في يومِ زفافِي أذكرُ رقصنَا معًا.. نرقصُ بجموحٍ وانهماكٍ كما لمْ نفعلْ من قبلُ.. نرقصُ.. نرقصُ.. نرقصُ، ونضحكُ بوجوهٍ تغمرُهَا السعادةُ.. لكن قلبي يعتصرُهُ الحزنُ.. كنتُ أعرفُ أنَّها تتألمُ.. الورمُ ينهشُ صدرَهَا.. لكنَّها أصرَّت أن تؤجلَ العلاجَ إلى أن يتمَّ زفافِي.

- أنا أختك يا رنا.. مين حيقف جنبك في الفرح غيري؟
- طب وصحتك؟!
- مش وقته.. ده وقت الفرح...

...

لكن الفرحَ أخذَ ينسحبُ رويدًا من حياتِنا.. بعدَ أيامٍ عاد "أحمد" إلى عملِهِ في السعوديةِ تاركًا خلفَهُ وعودًا كثيرةً.. رائحةَ جسدِهِ الساخنةِ.. وفراغًا كبيرًا في قلبِي...

مضَتِ الأيامُ بعدَهُ ثقيلةً بين جلساتِ علاجِ صفيةَ وصورِ الأشعةِ والفحوصِ المتلاحقةِ.. مع الوقتِ بدا أنَّ الأوانَ قد فات.. تأجيلُها للعلاجِ لم يتركْ لها فرصةً...

...

في ذلكَ اليومِ.. في المستشفى وأنا أساعدُها على ارتداءِ مريلةِ العملياتِ.. نظرَتْ صفيةُ لصدرِها لآخرِ مرةٍ.. وقالتْ:

- أنا خايفة...
- ماتخافيش يا صفية.. حتعدي على خير إن شاء الله...
- أنا مش خايفة من العملية.. أنا خايفة من اللي بعد العملية...

ومدَّتْ يدَهِا؛ لتمسحَ دمعةً هربَتْ من عينيها...

...

هو...

زوجُ صفيةِ.. لم أشعرْ يومًا بالراحةِ معهُ.. ربما نظراتُه هي السببُ.. نظراتُهُ قويةٌ وحارقةٌ.. منذُ خطبَتِهِ لصفيةَ وأنا أشعرُ بنظراتِهِ تخترقُ ظهري حينَ أمشي أمامَهُ.. استمرَّ الأمرُ حتى بعدَ زواجِهما وزواجِي.. لكن بعد سفرِ أحمد صارتْ نظراتُهُ موجعةً أكثر.. تخترقُني بقوةٍ؛ لتصلَ للفراغِ الذي تركَهُ أحمدُ.. في قلبِي...

حتى حين دخلتْ صفيةُ المستشفى.. لم تخفتْ نظراتُهُ المختلِسَةُ.. بل صارتْ أكثرَ وضوحًا وثباتًا...

ليلتَها.. قبل أن تفيقَ صفيةُ من البنج.. طلبتْ مني أمي أن أذهبَ إلى منزِلِها؛ لأحضرَ لها بعضَ ما قد يلزمُها في المستشفى.. وطلبَتْ منه.. هو.. أن يوصلَني...

حين وصلَتْ تركْتُهُ خلفي، واتجَهْتُ مباشرةً إلى غرفتِها.. فتحْتُ الأدراجَ؛ لأبحثَ عمَّا... لكن شعرتُ بنظراتِهِ تخترقُني.. التفتُّ لأجدَه واقفًا.. جسدُه الضخمُ يسدُّ بابَ الغرفةِ.. ونظرتُهُ تزدادُ اشتعالًا.. انتابتني رعشةٌ.. تراجعتُ خطوتين للوراء، وقد انسدلَت يداي بجانبِي.. اقتربَ منِّي أكثرَ.. احتضَنَنِي بقوةٍ.. حاولْتُ أنْ.. أقاومَ.. فلمْ أستطع.. قبلاتُهُ الموجِعةُ تغرقُ وجهِي ورقبتِي و...

لم أستطع أن أقاومَ.. لم أستطع...

...

يا حبيبتي، افهميني بقى، أنا ماقدرش أنزل إجازة، ولا أقدر أبعت لك تيجي دلوقت.

إنت وعدتني من قبل ما نتجوز إن كلها شهرين وححصلك!

بس الظروف هنا في السعودية اتغيرت خالص، أنا بحارب عشان أفضل هنا أصلاً..

يا أحمد حرام عليك.. من ساعة عملية صفية وانا..

أتوقف لأبحث عن نهاية للجملة..

من ساعة عملية صفية وانا تعبانة جدًا ومحتاجاك جنبي!

معلش يا حبيبتي.. اصبري الكام شهر دول بس.

كام شهر؟!.. كام شهر يابن الـ...

طب لو الوضع صعب هناك ماتنزل تشوف شغل هنا.. على الأقل تكون جنبي!

√√ Seen

...

قاعةُ الانتظارِ الكبيرةِ في المعملِ الكبيرِ...

لا زلتُ جالسةً.. أحاولُ الهربَ أكثرَ داخلَ شاشةِ هاتِفِي.. لكنني لا أستطيعُ أنْ أمنعَ نَفْسِي من الالتفاتِ مرةً تلوَ المرةِ لموظفاتِ الاستقبالِ، ها هي إحداهُن تلتفتُ للجالسينَ.. تنظرُ للاسمِ المسجلِ على مغلَّفِ التقريرِ أمامَها.. أتابعُ شفتيها وهي تجمعُ الحروفَ:

- عديلة عبد الرؤوف...

لا.. مزيدًا من الانتظار!!...

أعودُ لشاشةِ الهاتفِ.. أكتبُ رسالةً إلى أحمدَ في بلادِ الرمالِ:

- ***أنا بجيب نتيجة العينة من المعمل.. أول ما تطلع حطمنك.***

قبل أنْ أُرسلَهَا أمسحُ الكلمةَ الأخيرةَ.. وأغيرُها:

- ***... أول ماتطلع حبلغك.***

وألمسُ زرَّ الإرسالِ...

...

"اصبري الكام شهر دول..."

كام شهر؟!.. كام شهر يا أحمد؟!

قلتَها كما لو أنهم "كام ساعة".. "كام ثانية".

في "الكام شهر دول" غرقتُ.. مع كلِ ثانيةٍ يندمجُ فيها لحمُهُ في لحمِي.. أكرهُ جسدي.. لحمِيَ الملعونَ الذي وصلَ بي لهذا القاعِ.. تنفجرُ كراهيتي في آهاتٍ يظنُّها "هو" آهاتِ المتعةِ.. تنفجرُ كراهيتي في دموعٍ تغرقُ وجهِيَ.. تنمِّل ملامحي...

ينظرُ لدموعِي بنظرتِهِ الحادةِ.. وحين ننتهي ينظرُ لجسدِي المنتهكِ بلومٍ.

- بتعيطي ليه؟.. المفروض تكوني مبسوطة.

ويتركُ جسديَ الدامعَ.. ويمضي...

...

كنتُ جالسةً بجوارِ صفيةَ.. التلفزيون يعرضُ فيلمًا صاخبًا .. صفيةُ تطبقُ غسيلَ اليومِ.. بينما أنا أقشرُ بطاطسَ الغداءِ بعنايةٍ...

- رنا.. أنا حاسة إن مجدي بيخونني.

أركزُ أكثرَ في نصلِ السكينِ اللَّامعِ وأنا أبحثُ عن ردٍ:

- إيه؟!.. إيه اللي خلاكي تشكي...؟

- أنا متأكدة مش شاكة...

أواصلُ سلخَ البطاطسِ بهدوءٍ وعنايةٍ...

- بس عارفة يا رنا.. أنا مش زعلانة.. بالعكس.. ده أنا المفروض أشكرها.. لأنها بتحافظ على بيتي.. بتديه اللي انا ماقدرش أديهوله دلوقت.

ضحكتْ ضحكةً عصبيةً وهيَ تُنْهِي تطبيقَ جاكيت البيجامةِ.. لتلقيَهُ بعنفٍ فوقَ بنطلونِه...

بعدَها توقفَتْ دموعِيَ عن النزولِ وأنا معه...

...

قاعةُ الانتظارِ الكبيرةِ...

أكتبُ رسالةً جديدةً إلى بلادِ الرمالِ:

- *أحمد إحنا لازم نسيب بعض.. طلقني يا أحمد!*

أنظرُ للجملةِ على الشاشةِ دونَ أن أضغطَ للإرسالِ...

تمرُّ الدقائقُ ونظراتي تتنقلُ بينَ الجملةِ.. وبينَ موظفةِ الاستقبالِ.. حتى...

- رنا محمد.. رنا...

أحدُ أطباءِ المعملِ أتى خصيصًا لينادِيَ اسمي.. أنظرُ له بالبالطو الأبيضِ، وأشعرُ بالدوارِ.. يمدُّ ذراعَهُ البيضاءَ لي بمغلفِ التقريرِ:

- الحقيقة يا مدام رنا...
- لأه...

يندهش:

- لأه إيه يا فندم؟!.. أنا بس كنت عاوز أقول لحضرتك...
- مش عاوزة...
- إيه؟!
- مش عاوزة أعرف...

أخطفُ المغلفَ من يدِهِ، وأطوِّحُهُ بكلِ قوتِي.. وأصرخُ:

- مش عاوزة أعرف حاجة...

وأنطلقُ هاربةً من القاعةِ...

لقاءٌ آخرٌ

دخلَ من بابِ الكافيتريا ذاتِ الواجهةِ الزجاجيةِ، سعلَ مرتين من رائحةِ التبغِ المحملِ بالنعناعِ التي ملأتِ المكانَ، بينما عيناهُ تبحثان عنها وسطَ تناثرِ الطاولَاتِ؛ وجدَها على طاولةٍ صغيرةٍ منزويةٍ في أحدِ الأركان، تشيرُ له بيدِها، رسمَ ابتسامةً سريعةً على وجهِهِ واتجَهَ نحوَها، جلسَ أمامَها، وأسندَ كوعَيْه إلى مفرشِ المائدةِ الأبيض.

- أنا آسفة إني أزعجتك.. بس انت بقيت أقرب حد أقدر أكلمه دلوقت.
- ماتقوليش كده.. إحنا أصدقاء.. "لهذا خُلق الأصدقاء"...

جاء الجرسون.. طلبَ ينسون.. بينما أخرجَتْ هي علبةَ سجائرَ صغيرةٍ، وأخذَتْ تبحثُ عن الولاعةِ في حقيبتِها.

بادَرَها بالحديثِ:

- مالكوا بقى؟.. اتخانقتوا تاني؟

- لأ مش اتخانقنا.. خلاص الموضوع خلص.. الموضوع خلص خالص...
- إزاي؟
- كان المفروض حنتقابل النهارده وكده.. بس هو اتصل بيا وقال لي.. قال لي إنه آسف.. قال لي إنه مش حيقدر يكمل.. قال إن العيب مش فيا.. وإن هو حاول وكان نفسه ينجح، بس فعلاً مش قادر يكمل في أي ارتباط دلوقت.. وقال لي...

سحبَتْ أولَ نفسٍ من سيجارَتِها، أغمضَتْ عينيها وهي (تمصُّ) الدخانَ بقوةٍ، بدَتْ كالمُغَيَّبَةِ لثوانٍ، قبلَ أنْ تخرجَ الدخانَ من فمِهَا وأنفِهَا في تمهُّلٍ، وتُكملُ:

- بس عارف؟.. متهيألي هو بيكدب.. بيقول كده عشان يرضيني بس.. أكيد هو زهق مني.. وعاوز يبعد عني أنا بالذات.. أكيد.. يمكن فيه واحدة تانية...

يردُّ عليها، وهوَ يلوحُ بيدِهِ؛ ليبعِدَ سحابةَ الدخانِ التي أغرقَتْه فيها:

- لأ طبعًا.. ليه بتقولي كده؟.. إيه اللي يخليه يكدب عليكي؟.. وبعدين.. وبعدين انتي لايمكن حد يسيبك عشان أي واحدة تانية أصلاً...

تعدلُ خصلةً من شعرِها الناعمِ تلقائيًا:

- أنا؟!.. على إيه يا حسرة؟!
- انتي مشكلتك بس في ثقتك في نفسك.. انتي إنسانة جميلة، وشخصيتك مميزة بس انتي اللي مش شايفة ده...

- مكانش ده رأيك من سنتين...
- لأ ده كان رأيي من الأول.. بس انتي اللي ماشفتيش ده...
- بس انت عمرك ما قلت لي إن...
- خلصتي النيسكافيه بتاعك؟
- آه!
- طب ياللا بينا...
- ياللا بينا فين؟!
- على أي مكان بعيد عن الدخان والكآبة دي كلها.. أنا مش عارف انتي مستحملة تقعدي هنا ازاي.. تعالي نمشي على البحر.. حيغسلك من الأفكار السودة اللي انتي فيها دي...

***

على رصيفِ البحرِ، أشعةُ الشمسِ أكثرُ سطوعًا رغمَ اقترابِها من الغروبِ، تصبغُ كلَّ الموجوداتِ بلونٍ ذهبِي. هواءُ البحرِ القويُّ يطيِّرُ شعرَها الفاحمَ، تخرجُ (توكة) مطاطيةً، وترفعُ يديها؛ لتخنقَ بها شعرَهَا، لكن هواءَ البحرِ القويَّ يهاجمُ جسدَهَا، فيكشفُ تفاصيلَه عبرَ "بلوزتِها" واسعةَ الصدرِ...

ينظرُ بطرفِ عينِه إلى نحرِها العاري قبلَ أن يسألَهَا:

- أنتي كان المفروض إنك حتقابليه النهارده؟
- آها...

- يبقى عشان كده لابسة المكشوف ده.. إغراء وكده...

تباغتُهَا الصدمَةُ، لكنَّها تضربُ كتفَه بقبضَتِها وهي تضحكُ في هيستيريا:

- ياه!!.. إنت مصيبة!!.. مافيش حاجة تفوت منك أبدًا؟!

كان سيرد عليها بردٍ مستفزٍّ آخر، لكنْ قاطعَتْهُ بائعةُ وردٍ على الكورنيش، تعرضُ عليهِ بضاعتَها الذابلةَ وهي تشيرُ لها باستعطافٍ:

- ربنا يخليها لك.

انفجرا في الضحكِ معًا من المفاجأةِ، اعتذر للمرأةِ، وأكملا سيرَهُما، بعد خطوتين قالَ وكأنما يحدِّثُ نفسَهِ:

- عمرها ما حاولت تبيع لنا ورد أيامها!!

نظرتْ لهُ بطرفِ عينِها ولم تعلقْ...

مرا أمامَ برجٍ سكنيٍ هائلِ الحجمِ، أشارَتْ لَهْ:

- شغلي هنا.. كنت واخدة أجازة بعد الضهر النهارده عشان خاطره.. بس مادام خلاص.. يبقى مالوش لزوم بقى.. حرجع الشغل...
- أوكي.. حسيبك بقى...
- لأ ماتسيبنيش.. تعالى معايا...
- آجي معاكي الشغل أعمل إيه؟!.. إنتي عبيطة؟!
- تعالى خد كتبك.. شايلاهم عندي في المكتب من ييجي سنتين دلوقت...

***

يدخلان أحدَ المصاعدِ المتعددةِ للمبنى، تضغطُ على زرِّ (15)، يبدأُ المصعدُ في التحركِ، بينما هو ينظرُ بتوترٍ إلى حوائِطِهِ المغطاةِ بالمرايا، ويزفرُ في قوةٍ، تنظرُ لَهُ متسائلةً:

- مالك؟!.. آه صح.. الأسانسـ...

يقاطعُها بقبلةٍ، قبلةٍ عميقةٍ وصامتةٍ، وهو يمسكُ بكتفيها بقوةٍ.

يصلُ المصعدُ للدور ١٥، تتباعدُ شفاههما مع تباعدِ مصراعَي المصعدِ، تنظرُ لَهُ بدهشةٍ ونصفِ ابتسامةٍ. أما هو، فينظرُ لها بعينين مذعورتين، ثمَّ يزفرُ ثانيةً، ويخرجُ مسرعًا من المصعدِ...

الأجرةُ المقررةُ

الرجلُ الذي يدفعُ "ربع جنيه" زيادةً عن أجرةِ "الميكروباص" يجلسُ دومًا في مقعدِهِ؛ ليطالعَ جريدةَ الصباحِ بعينين مرهقتين.

الرجلُ الذي يدفعُ "ربع جنيه" زيادة عن أجرة الميكروباص لا يلاحِظُهُ أحدٌ. فالأجرةُ تتغيرُ حسبَ المسافةِ ومكانِ الركوبِ ومزاجِ السائقِ والراكبِ أحيانًا. والسائقُ ينسَى – أو يتناسَى – أن هنـاك من دفعَ أجرةً زيادةً.

الرجلُ الذي يدفعُ "ربع جنيه" زيادةً تتسعُ عيناهُ بقوةٍ أحيانًا تحتَ نظارةِ القراءةِ وهو يطالعُ أخبارَ الصفحاتِ الداخليةِ للجريدةِ، عن تفجيراتٍ مَا، والإرهابِ الذي يضربُ – دومًا – من جديدٍ.

الرجلُ الذي يدفعُ زيادةً لم يحاولْ مرةً أن يدفعَ الأجرةَ الأصليةَ، وأن يجادلَ السائقَ: "أنا نازل آخر الشارع، يا اسطى". ولهذا لم يميزْ أحدُ الركابِ صوتَهُ.

الرجلُ الذي يدفعُ زيادةً يظلُّ في استغراقِهِ في القراءةِ حتى بعدَ أن ينزلَ؛ فيظلُّ واقفًا على الرصيفِ يكملُ القراءةَ، حتى يبتعدَ الميكروباص.

ذلك الرجلُ، حين كانَ يطالعُ خبرًا ما، اتسعَتْ عينَاهُ أكثرَ، وبدأَ فجأةً في بكاءٍ صامتٍ.. غزيرٍ. وحين أخذَ الركابُ الآخرون يسألونَه عن السببِ، توقفَ السائقُ ليرى ما الأمر، لكن استمرَّ الرجلُ في بكائِهِ الأخرسِ.. حتى عمَّتْ موجةُ البكاءِ السائقَ.. والركابَ.. والجميعَ..

فِي مديح الجاموسِ الأبيضِ

الجاموسُ الأبيضُ الجميلُ.. الجاموسُ الأبيضُ الهادئ الذي لا يفكرُ فيما لا يعنِيه ولا ما يعنِيه.. يعيشُ في العشبِ الأخضرِ؛ ليأكلَهُ دونَ أنْ يشغلَ رأسَهُ الأبيضَ الجميلَ بأيِّ شيءٍ.. تصرفاتُهُ وأفكارُهُ لا تزيدُ عن مسافةٍ بعدَ أنفِهِ عن هذا العشبِ.. فقط...

***

حسنًا.. إذا أردتَ حقًا أنْ تأتيَ لعيادَتِي لتهنئَتِي بالافتتاحِ.. لا أنصحُكَ.. سيكونُ عليكَ أولًا أنْ تركبَ عدةَ مواصلاتٍ (عاديةٍ) إلى أقصى حدودِ المدينةِ – على الأقلِ أقصى حدودِها كما تعرفُها أنتَ – وبعد مشي ستجدُ نفسَكَ في بلادٍ يركبونَ عرباتِ النقلِ، فتقفزُ في الصندوقِ الخلفِي لإحداها، وتنطلقُ بك حتى نهايةِ مشوارِها.. هناك ستجدُ معديَّة تعبرُ بك الترعةَ للجانبِ الآخرِ (لا تصدقْ من ينصحُكَ أن تمشيَ حتى الجسرِ؛ لتعبرَ منْهُ..

لقد حذَّرتُك).. ومن الجانبِ الآخرِ اصطدْ أي توكتوك عابرٍ؛ ليصلَ بك إلى الشارعِ الذي فيه العيادةُ.. مرحبًا بك في أرضِ الجاموسِ الأبيضِ.

***

الجاموسُ الأبيضُ لا يضحكُ...

***

بعد سنواتٍ من العملِ طبيبًا بين مستشفياتِ الحكومةِ المتهالكةِ والمستشفياتِ والعياداتِ الخاصةِ التي تحترفُ استغلالَ الطبيبِ والمريضِ معًا.. وبعدَ ما صرفْت دم قلبِي على الماجستير.. قلتُ لنفسِي إن الوقتَ قد صارَ مناسبًا لأفتحَ لنفسِي عيادةً خاصةً.. أقنعَنِي أحدُهُم – منه لله – أنْ أفتحَ عيادَتِي هنا: "هنا منطقةٌ جديدةٌ لازالت بكرًا.. الإيجاراتُ والأسعارُ قليلةٌ.. ولنْ تجدَ منافسةً من أطباء آخرين...".

لكنْ...

***

الجاموسُ الأبيضُ لا يمرضُ.. ولو مرضَ لا يفهمُ أنَّهُ مريضٌ.. ولو فهمَ...

***

يجلسُ أمامِي بعد الكشفِ.. يتلوَّى من شدةِ المغصِ الكلويِّ.. يدُهُ تعتصرُ مكانَ الألمِ في ظهرِهِ...

- الوجع ده عندك من قد إيه؟
- ياجي سنة كده يا داكتور.. بس كان بسيط وزاد...
- ...!!.. حنحتاج نعمل تحليل بول واشعـ...
- تحليل ازاي؟!.. ماني جلت لجنابك إني بجى لي يومين مش بتسير خالص...

همهمتُ وأنا أفكرُ في أنسبِ صياغةٍ لكلامِي.. ثم أخبرتُهُ:

- كده احتباس بولي.. تطلع على المستشفى على طول وتعمل الأشعة دي.. احتمال تكون حصوة.. و.. احتمال.. ممكن تحتاج عملية...

نظرَ لي باندهاشٍ.. بدت عليه ملامحُ عدمِ التصديقِ.. أكملْتُ كلامِي لأطمئنَه:

- ماتقلقش يا حاج.. دي عملية بسيـ...
- عملية إيه يا داكتور؟!َ.. ماينفعش تديني إبرة وخلاص؟!.. دي البت فرحها الشهر الجاي وآني.. آني....

صرخَ من شدةِ الألمِ.. وسقطَ مغشيًا علَيْهِ...

***

علَّقتُ بروازًا جديدًا على الحائطِ المواجِهِ لمكتبِي.. بالضبطِ أمامَ البروازِ الذي وضعتُ فيه شهادةَ الماجستير.. بروازٌ ضخمٌ.. يحتوي على صورةٍ ضخمةٍ محدودةِ الألوانِ: رأسُ جاموسةٍ بيضاءَ تنظرُ للكاميرا ببلادةٍ لامتناهيةٍ.

مع الوقتِ.. وكلما قابلَتْنِي المصاعبُ: "لازم كشف على العيال يا داكتور؟ماينفعش تجول لك اللي عندها بس؟.. يعني إيه عندها القولون يا داكتور؟.. يعني كده مش حتخلف؟!.. إزاي محتاج داكتور مخ وأعصاب؟.. أمال انت مش داكتور؟... ساعتها أنظر للصورة، وآخذ نفسًا عميقًا.. أتذكر أستاذي الدكتور رأفت.. ترن في دماغي جملته المفضلة: "جاموس أبيض.. جاموس.. جامو...

***

عن تاريخِ أرضِ الجاموسِ الأبيضِ:

كانت أرضُ الجاموسِ الأبيضِ عبرَ العصورِ مجردَ عزبةٍ صغيرةٍ متاخمةٍ لضواحي المدينةِ، مجردُ بقعةٍ زراعيةٍ ذاتَ أرضٍ محدودةِ الجودةِ؛ لهذا.. لم تنلْ شرفَ أن تكونَ عزبةَ باشا كبيرٍ – أو صغيرٍ – فتأخذُ شهرتَهَا منه، مثل خورشيد وغبريال. وربما لو بحثتَ عنها في خطط علي مبارك لن تجدَ لها أثرًا. ذهبَتِ الملكيةُ ومضى عهدُ العزبِ والباشاوات، وبقيت تلك الأرضُ على حالِها، يقطنُها مزارعون فقراءُ لا يحلمون بزراعةِ القطنِ، فيزرعون ما تقدرُ عليه أرضُهُم من خضراواتٍ. يزرعُ الواحدُ منهم قيراطًا من الكرنبِ أو الجرجيرِ، ثم يحملُ ما حصَدَهُ على عربةٍ متهالكةٍ؛ ليسرحَ به في شوارعِ المناطقِ الشعبيةِ للمدينةِ المجاورةِ.

لكن بمضي الوقت، توحشت المدينة؛ فصارت أكثر قربًا، حتى أحاطت بتلك العزبة، وقررت ابتلاعها. ورغم كل الحديث عن "أهمية الحفاظ على الرقعة الزراعية" فإن "التصوير الجوي" أعلن في النهاية ما كان معلومًا من

قبل. أصبحت أرض عزبتنا الحبيبة "متخللات" للمدينة، غير قابلة للزراعة. وفي لحظة، دخلت في الحيزِ العمرانِي للمدينةِ، وفي نفسِ اللحظةِ، قفزَ الفلاحون البسطاءُ مزارعو الأرضِ من طبقةِ بائعي الخضارِ إلى طبقةِ بائعي الأراضي والعمارات والأبراجِ، أي أنهم تحولوا من بشرٍ بسطاءَ إلى...

***

الجاموسُ الأبيضُ.. لا يعرفُ كيف يستخدمُ النقودَ...

***

النقودُ لا تشتري السعادةَ.. طبعًا.. لكنها اشترت لهم ما كانوا يشتهونَه طوالَ حياتِهم: الطعامَ والنساءَ.. ولأن كليهما – كالتدخين – ضار جدًا بالصحةِ.. فمع مُضِي الوقتِ زاد عددُ المترددين على عيادتي...

***

الجاموسُ الأبيضُ.. معدٍ!

***

بالطبع كان هذا ما يجبُ أن يحدثَ.. فبالتأكيدِ أنا نفسي أنتمي لنفسِ الفصيلةِ "البيضاء"؛ لأتركَ الدنيا كلها، وأفتحُ عيادةً هنا.. شهورٌ قليلةٌ ووجدْتُ نفسِي أرتاحُ للبسِ الجلاليبِ البيضاءِ الخفيفةِ.. ما المشكلة في أن أجلسَ في العيادةِ بها.. مع "بُلغة" جلديةٍ خفيفةٍ في قدمي.. أذهبُ للمسجدِ، وأتبادلُ التحايا مع مرضاي:

- سلام عليكم يا حاج إبراهيم.. انت خلاص ما شاء الله بقيت زي الفل.. يبقى مالوش لزوم تيجي الاستشارة.

أصبحتُ ضيفًا أساسيًا على الولائمِ المختلفةِ التي يقيمُها كبراءُ المنطقةِ في أفراحِهِم الخاصةِ.. وليس غريبًا أن يميلَ عليّ الحاجُ صاحبُ الوليمةِ؛ ليشتكيَ لي بعد أن ألتهم طنًا من اللحمِ المحمرِ السمينِ: بحس بحموضة وحمو جوف جامد بعد الأكل يا داكتور...

***

- جالي عريس تاني الأسبوع ده.. مهندس بترول.. بس أنا رفضته.

كان هذا خبرًا معتادًا في محادثاتِنا ومقابلاتِنا.. تواتيني أولًا بأولٍ بأخبارِ العريسِ الذي يتغيرُ أسبوعيًا.. أفهمُ قصدَها.. أظنُّها تريدُ أن تدفعَنِي لشربِ فنجانِ القهوةِ مع بابا.. رغم ذلك كنتُ متأكدًا أنها لا تخترعُ هؤلاء العرسان من وحي خيالِها.. من الطبيعي أن يتكاثفَ العرسانُ حول ابنة الدكتور عبد المعز رئيس قسم العيون.. لكن ربما هي تحتاجُ إلى كشفٍ عندَ والدِها.. تركتْ كلَ هؤلاءِ لتتعلقَ بي!!.. زميلها الكحيان في فترة الامتياز...

في الفترةِ الأخيرةِ، أصبحتْ فقرةُ العريسِ هي ألطفُ فقرةٍ في مقابلاتِنا.. فالتالي لا يسرُّ:

- انت اتغيرت.. أنا مابقيتش عارفاك...
- أمال مين اللي يعرفني؟

- بجد.. زي ما تكون مش انت أحمد اللي أعرفه.. قعدتك مع الفلاحين حولتك لشخص تاني.. شخص غريب!!
- أنا؟.. وانا ايه اللي خلاني افتح عيادة في آخر الدنيا في وسط الفلاحين.. عشانك!

كأننا نؤدي دورًا في مسرحيةٍ يتكررُ عرضُها كلَّ مقابلةٍ.. انتظرتُ جملتَها التالية بيقين:

- انت أصلا مابقيتش بتهتم بيا.. بقيت بتهتم بشغلك وعيادتك وإسمك بس.. مش حاسس بمعاناتي مع بابا.. الشغل معاه بقى صعب جدًا.. بيستهلكني.. الحياة معاه كلها صعبة.. أحمد.. إنت لسه بتحبني؟...
- طبعًا!!...
- لأ.. أنا متأكده انك مابقيتش تحبني يا أحمد...

***

الجاموسُ الأبيضُ لا يعرفُ المنطقَ...

***

في عيادةِ أرضِ الجاموسِ الأبيضِ.. يتحولُ الغريبُ المستهجنُ إلى فعلٍ اعتياديٍ يحدثُ كلَّ يومٍ.. لهذا توقفْتُ عن الاندهاش.. لم أعدْ أندهشُ حينَ تأتي لي "ولي أمر" المريضةِ بالنيابةِ عنها.. سيدة منتقبةٌ تدخلُ غرفةَ الكشفِ:

- بنتي يا داكتور.. طالع لها طلوع تحت باطها كده، وبتجول واجعها جوي.. زي ما يكون ولا مؤاخذة حيل...

قفزتُ على سؤالي لها عن سببِ عدمِ حضورِ ابنتِها.. فأنا أعلمُ الإجاباتِ سابقًا من إنها "بنت" و"عيب" و"مايصحش" "ماينفعش تكتب لها العلاج من كلامي يا داكتور؟"

دخلت في الموضوع مباشرة:

- احتمال فعلاً يكون التهاب في العقد اللمفاوية.. يعني حيل زي ما بتسموه.. بس لازم أكشف عليها بنفسي...
- يعني ماينفعشي...؟

تنهدت بملل...

- لأ ماينفعش.. لازم طبعًا أكشف عليها...

هنا ضحكَتْ.. فاجأتني بضحكةٍ طويلةٍ ومجلجلةٍ ملأتْ غرفةَ الكشفِ.. ارتجَّ عليّ ولم أفهم ما يحدثُ.. طالت الضحكةُ؛ حتى كادت أن تختنقَ تحت النقابِ.. لم أعرفْ ماذا أفعلُ.. ضغطْتُ زرَّ الجرسِ بارتباكٍ؛ لاستدعاءِ السكرتيرةِ من الخارجِ، لكن لم تأتِ.. بدأتْ تهدأ، وتلتقطُ أنفاسَها.. قالت شيئًا لم أتبينْه من تحتِ النقابِ.. اقتربْتُ لأسمَعَها، فأكملتْ مفاجآتِها.. رفعتِ النقابَ عن وجهِهَا، وكرَّرَت كلامَها: "انت مسخرة!!.. زي ما توقعت وأكتر كمان...".

تراجعتُ مرتبكًا وأنا أشيرُ لها أن تعيدَ تغطيةَ وجهِهَا: "يا مدام ماينفعش كده.. من فضلك...".

أضغطُ الجرسَ بكلِّ قوَّتِي.. ولا حياةَ للسكرتيرةِ الصغيرةِ...

- إهدى بس.. أنا أصلاً مش مدام.. ومش منقبة.. النقاب ده بس عشان أظبط الدور.
- انتي.. انتي...!
- وانا مش مجنونة.. متخافش...

واكتفت بضحكة قصيرة هذه المرة...

خلعتِ النقابَ لتبدوَ تحتَه بحجابٍ بسيطٍ.. نظرتُ لها لأجدَ أنها حقًا ليست "مدام".. فتاةُ في بدايةِ العشرينيات بملامحَ ناعمةٍ وبيضاء.. غمازتين طفوليتين وعينين رائقتين لا زال أثرُ الضحكِ باديًا فيهما.. ألقتِ النقابَ، وجلستْ تتأملُ في تفاصيلِ الغرفةِ.. أما أنا فجلستُ أتأملُ جمالَهَا، ولم أجدْ ما أفعلُهُ.. وجَّهتْ نظرَها لصورةِ "وجه الجاموسة" المواجهةِ لمكتبي:

- هي دي بقى صورة الجاموسة اللي بتبص لها طول اليوم مع الحالات؟...
- عرفتي منين؟!
- من الفيس طبعًا!!.. أنا عندك على الفيس.. وأصلاً إنت عامل كل البوستات بتاعتك عامة.. فاكر نفسك إنفلوينسر العزبة...

ابتسمتْ ساخرة.. ومن داخلي كنت أتمنى أن تعطني ضحكتَها الجميلةَ مرةً أخرى...

- ده اللي خلاني آجي لك أصلاً.. البوستات بتاعتك اللي كلها تنمر وقلة أدب على المنطقة وسكانها.. وياريتك حتى دمك خفيف.. كلها بوستات سخيفة ودمها تقيل.. وصحابك اللي بيعلقوا عندك هما كمان دمهم سم زيك.
- يا آنسة...!!
- الجاموس الأبيض.. الجاموس الأبيض.. الفلاحين.. الفلاحين.. أمال انت إبن مين يا دكتور؟!.. حفيد اللورد كرومر، واللا ابن اخت الملك فاروق؟
- أنا.. أنا...

حاولت أن أرسمَ على وجهي الغضبَ والاعتراضَ، لكن من داخلي كنتُ أعترفُ بصحةِ ما تقولُه.. يقولون إن من الأدب أن تصمت حين توبخك سيدة.. خاصة إن كانت جميلة.

- أنا مش عيانة ولا حاجة.. أنا بس دفعت الكشف، وجيت عشان أقول لك الكلام ده في وشك.. يمكن تطلع من الفقاعة اللي انت عايش فيها...
- ...

- بتكلم عشان مصلحتك واللـه.. كان ممكن ابعت لك على الفيس.. بس حتعمل لي بلوك، وتفضل على عماك.. عايش دور الشهيد اللي شغال في آخر الدنيا، واللي حواليه كلهم أغبيا!.. جاموس.. فقاعة.. فقاعة نفسية إنت عملتها لنفسك.. الدنيا اتغيرت هنا من سنين، بس انت اللي مش شايف.. كل حاجة كنت بتصيح عليها اتغيرت.. الناس والمواصلات والشوارع والبيوت.. كل حاجة ماعدا انت!!

أخذتُ أبتلعُ كلماتِها القاسيةَ على مهلٍ، ولمْ أجدْ ردًا.. ظللتُ صامتًا ومتجهمًا لدقيقةٍ وهي تنظرُ لي بنفسِ نظرتِها الساخرةِ.. أحاولُ أن أردَّ عليها.. أنْ أصرخَ فيها وأطردَها.. لكن لم أجدْ لديَّ القدرةَ على فعلِ أيّ شيءٍ من هذا.. بدَت واثقةً جدًا من نفسِها.. وكانت على حقٍ...

- أنا حخلي السكرتيرة ترجع لحضرتك فلوس الكشف.
- شكرًا يا دكتور.. المفروض أنا اللي آخد منك مقابل التشخيص والعلاج...

ضحكَت ضحكتَها القصيرةَ لمرةٍ أخيرةٍ.. ثمَّ خرجت، وتركَتْني مقصوفَ الجبهةِ.

***

الجاموس الأبيض...

بس بقى جتك خيبة...

***

عن أصل تسمية الجاموس الأبيض بهذا الاسم:

الحقيقةُ أنني لستُ من اخترعَ هذا المصطلحَ المهينَ.. بل نقلتُهُ عن الدكتور رأفت.. أستاذي في الكلية ومشرف الماجيستير.. أعجبتُ به منذ أولِ محاضرةٍ سمعتُها له.. ومع الوقتِ صارَ مثلي الأعلى.

كان الدكتور رأفت هو الوحيدُ تقريبًا من أساتذتِنا الذي لا يصدعُنا بذكرياتِ بعثتِهِ إلى أوروبا أو أمريكا. هو يقضي أغلبَ العامِ في ألمانيا أصلًا، ولا يحتاجُ أن يتسولَ انبهارَنا. أُعجبتُ دومًا بمعلوماتِهِ الضخمةِ واطلاعِهِ الواسعِ.. كان يتقبلُ وجودَنا في مكتبِهِ في أيِّ وقتٍ، ويجيبُ على أسئلتنا مهما كانت بسيطةً أو ساذجةً.

لكن حين عملت تحت إشرافه في سنواتِ الامتيازِ، لاحظتُ أن تعاملَه مع المرضى في المستشفى الجامعي يختلفُ تمامًا عن تعاملِهِ الراقي مع زملائِهِ وتلاميذِهِ.. يعاملُنا كأنَّه لورد إنجليزي، ويعاملُ المرضى وأهلَهُم معاملةً لا تزيدُ عن معاملةِ السجانِ للمحكومِ عليهم.. هو أولُ من سمعتُ منه لقبَ الجاموس الأبيض...

حينها كنتُ شابًا في بدايةِ خبرتِي العمليةِ.. مؤمنًا تمامًا بأفكارٍ مثاليةٍ عن أهميةِ العنايةِ بالمرضى بغضِ النظرِ عن وضعِهِم المادِّي والاجتماعِي.. كنتُ أرى نفسِي بطلًا يحاربُ من أجلِ الفقراءِ الذين ليسَ لهم أطباءُ غيرنا.. ولا مكانَ لعلاجِهِم إلا المستشفيات المجانية.. وقتها كنتُ أتجاوزُ ساعات "النوبتجية"؛ من أجلِ متابعةِ حالةٍ طارئةٍ.. وربما أصرفُ من

قروشِي القليلةِ لإحضارِ زجاجةِ دواءٍ أو بكَرةٍ من الشَّاشِ غيرِ متوفرةٍ.. ساعتها كان الدكتور رأفت ينظرُ لي بابتسامتِهِ وينصحُني:

- أحمد يا إبني.. ماتضيعش صحتك وحياتك على قضية خسرانة.. أنا كنت زيك كده لسنين.. بعدين بصيت حواليا واكتشفت الحقيقة.. بص حواليك.. مكان معفن بإمكانيات معفنة.. عمرك ما حتقدر تعمل حاجة صح في بيئة عمل زي دي.. والناس اللي انت بتحرق نفسك عشانهم دول.. الجاموس الأبيض دول.. مجرد جهلة.. عمرهم ما حيقدروك ولا حيشوفوا اللي انت بتعمله علشانهم...
- مش مهم يا دكتور.. كفاية إننا نحاول نعمل اللي علينا ونوصل رسالتنا...

تحولتْ ابتسامَتُهُ إلى ضحكةٍ ساخرةٍ:

- أنا عارف إنك دلوقت شايف نفسك قديس.. عاوز تبقى ملاك بجناحين طاير فوق الأرض.. وشايفني أنا الشيطان.. بس استنى.. بكره هما دول اللي حيشدوك عشان ترجع للأرض تاني.. وينتفوا لك ريش جناحاتك دي...

ضحكَ بشدةٍ على دعابتِهِ وتركَني ومضَى.. يومها كرهتُهُ واحتقرتُ صلَفَهُ وتعالِيه.. لكن شهورًا قليلةً.. أثبتَتْ لي أنَّه على حقٍ...

كنتُ في استقبالِ المستشفى أتابعُ حالةً حرجةً.. وأصرخُ في الجميعِ أنها تحتاجُ نقلَ دمٍ عاجلٍ.. حين هَجَم علينا عددٌ من البلطجيةِ.. يُعملون

الضربَ والتحطيمَ في كلِّ ما تطولُهُ أيديهم.. قالوا إن قريبًا لهم مات في المستشفى.. وإنَّه خطؤنا.. ساعتها حاولتُ أن أقفَ، وأدافعَ عن الاستقبالِ والمرضى.. أذكرُ أن داليا ابنة الدكتور عبد المعزِّ كانت تصرخُ.. حاولتُ أن أحميها؛ فكان نصيبي ضربةَ شومةٍ فجَّرت الألمَ في رأسي.. وسقطْتُ غارقًا في دمِي...

حين أفقت في اليوم التالي.. أخبروني أنهم أنقذوا عيني بأعجوبة.. وحين جاء بعدها الدكتور رأفت؛ ليطمئنَّ على حالتي لم يفوتِ الفرصةَ:

- شفت يا ابني؟.. قلت لك دول جاموس إيه؟

رددت عليه بمخي المرتج:

- أبيض يا دكتور.. جاموس أبيض.

***

- حمار...
- مين؟...
- الدكتور رأفت بتاعك ده حمار كبير، وعامل نفسه فيلسوف عصره.. مين قال عشان إنسان واحد غلبان وهمجي يبقى كل الغلابة همج؟.. زي اللي لما يشوف دكتور مادي واستغلالي يقول على كل الدكاترة ماديين واستغلاليين؟.. ده منطق سيـئ.. منطق مريض.. الدكتور بتاعك مجرد منظر على الفاضي...

- الأستاذ الدكتور رأفت منظر على الفاضي؟!.. ده العالم كله بيحترم رأيه!!.. ده في ألمانيا...
- ممكن فعلاً يكون عالم عظيم.. بس للأسف مش إنسان عظيم...

رغم دفاعي عن أستاذي فإنني شعرتُ بالراحةِ؛ لأن إهانتها هذه المرةَ كانت موجهةً لشخصٍ آخر غيري.. بعد زيارتها "الودية" لعيادتي بحثتُ عنها في زحامِ قائمةِ أصدقائي على الفيسبوك حتى وجدتها.. حينها تذكرت أني قبلت صداقتها قبل شهور.. نورا.. هذا هو اسمها.. واكتشفتُ أنها لم تكذب عليّ في أي مما قالته في العيادة.. هي من أبناء الـ.. مقيمين بالمنطقة منذُ زمنٍ.. من صفحتها عرفتُ أنها في سنتها الأخيرةِ في دراسةِ الفلسفةِ في الجامعةِ.. هي فعلًا لا زالت عزباء.. صفحتها تحفل بالآراء الجريئة في كل شيء، الفلسفة والفن والحياة كلها.. ربما هي كذبت فقط حين أخبرتني أنها غير مجنونة!!

الحقيقة أن ما سمعته من كلامها ثم ما رأيتُهُ على صفحتِها كان فرصةً حقيقيةً لأخرجَ من "الفقاعة" كما قالت.. اكتشفتُ أنني كنتُ أمشي دون أن أرى ما حولي.. بالضبطِ كالحمارِ المغمَّى العينين؛ لينظرَ أمامه فقط.. فعلًا تغير الكثيرُ من حولي.. تغيَّرت البيوتُ المنخفضةُ التي لا تزيدُ عن دورين، وتحوَّلت إلى أبراجٍ عاليةٍ مليئةٍ بالمصاعدِ.. اختفى الجلباب الفلاحي لصالح القميصِ والبنطلون.. بل والبدلة.. الشارعُ أصبح أكثرَ حيويةً وازدحامًا.. حتى الناس في الشوارع تغيروا.. زادَ الشبابُ والأطفالُ والتكاتك!!.. بدا أن الشارعَ كله قد تغيَّر.. عدا عيادتي!!...

بعدما اكتشفتُ صفحتَها بيومين تجرَّأتُ أن أرسلَ لها رسالةً خاصةً.. ولدهشتي ردت على رسالتي فورًا، وتبادَلْنا أرقامَ الهاتف...

- كل يوم بروح العيادة ييجي لي نفس المرضى بنفس الشكل بنفس الشكاوي بنفس الطريقة.. إزاي كنتي عاوزاني أشوف إن الدنيا اتغيرت؟
- ده مالفتش انتباهك لحاجة؟.. الدنيا كلها اتغيرت ما عدا عندك.. تفتكر ليه؟
- ليه؟!
- لأن انت اللي حبست نفسك في الفقاعة دي.. يمكن خوف من التغيير.. يمكن عشان الوضع ده مناسب لقناعتك إنك أحسن من اللي حواليك وبتفهم اكتر منهم...
- جينا لكلام الفلسفة...
- أنا مش بتفلسف.. المشكلة عندك وانت اعترفت بيها.. انت اللي رفضت تتغير.. فضلت بتتعامل كأنك دكتور صغير في وحدة ريفية.. لحد ما الناس كمان شافوك صغير...
- الناس دلوقت شايفيني دكتور وحدة ريفية؟
- بالكتير.. إنت بقيت الدكتور البرَكة بتاع المنطقة.. حاجة كده زي حلاق الصحة زمان.
- أنا مش عارف أنا بستحمل إهاناتك دي ليه؟
- أنا اللي مش عارفة بقول لك ده كله ليه.. كنت سيبتك مرتاح في فقاعتك أحسن.. معرفش إزاي دكتور وتفكيرك بسيط كده.. سوري

قصدي تفكيرك عبيط.. بتشوف الحاجة زي ما انت عاوز تشوفها مش زي ما هي في الحقيقة.. انضربت مرة واحدة خلتك تغير رأيك في شغلك وحياتك.. الدكتور الحمار بتاعك ده خلاك حولت نفسك من طبيب صاحب رسالة لحلاق صحة عامل عيادة سبوبة عشان ياكل منها عيش...

- كده يبقى مش الدكتور رأفت بس اللي حمار...

***

داليا – بنت الأستاذ الدكتور عبد المعز رئيس قسم العيون – جالسةٌ أمامي في هذا الكافيه الباهظ.. أراها تتحدث: "الوضع مع بابا بقى صعب جدًا.. وجودي معاه في نفس العيادة مخليني مجرد كيان تابع له.. كل يوم بفكر اني لازم أستقل بقى وأعمل عيادة بإسمي.. أنا مابقيتش...".

تتحدث لي بينما أنا أكتفي بهزاتٍ من رأسي توحي بمتابعةِ ما تقول.. لكن رغمًا عني تتوقفُ الهزات، وأتوقفُ عن التظاهرِ بالاستماع.. يتجه تركيزي كله لفنجانِ القهوةِ في يدي.. أتأملُ حروفَ اسم الكافيه المطبوعةَ على الفنجان.. ثم أغرقُ داخل الفنجانِ.. أنظر لبقايا البن المترسبة في القاع...

عدة سنوات مرت على علاقتي بها.. بالتحديد منذ يوم "هجوم الاستقبال" حين تلقيت الضرب وأنا واقف بجوارِها في الاستقبال.. بعدها تحولتُ من مجرد "زميل" إلى الفارسِ المغوارِ الذي ضحى بنفسه؛ ليحميها وتلقى الضرباتِ عنها.. لكن الآنَ وأنا أتذكرُ ما حدث.. هل هذا ما حدث فعلاً؟.. هل كنت أحاول حمايتها حقًا؟.. كيف ولماذا؟..

ساعة الهجوم كان تفكيري كله مُنصبًا على تلك الحالة الحرجة التي كنت أطلب كيس دم لها.. أذكر أنها كانت امرأة مصابة بنزيف شديد.. لا أذكر سبب النزيف، لكن أذكر لون بشرتها الذي كان بلون الورق وشفتيها يكتسبان زرقة الموت رويدًا رويدًا.. كنت معها وحدي، بينما انطلق زوجها ليبحث عن كيس الدم.. لدقائق لم أكن أسمع شيئًا إلا صوت أنفاسها تزداد سرعة وصخبًا...

- نجوى.. كان اسمها نجوى...

نظرة اندهاش ارتسمت على وجه داليا بعدما قاطعتها بلا مقدمات:

- نجوى مين؟
- الحالة اللي كنت معاها يوم ما هجموا على الاستقبال.. فاكرة؟
- وده يوم يتنسي؟.. بس إزاي لسه فاكر اسمها لحد دلوقت؟
- مش عارف!
- عادي.. الذاكرة لها ألعابها.. انت عارف إن حتى مرضى الزهايمر بيفتكروا حاجات من...

أكملت حديثها بسلاسةٍ.. وأنا عدت لتمثيل أني أتابعُ ما تقول.. نظرة أخرى لفنجان القهوة الخاوي وبقايا البن فيه.. القهوة كانت سيئة للغاية.. لم يحسنها شكل الفنجان الأنيق.. نجوى.. كانت نحيلة للغاية، وزوجها ضخمٌ للغاية، لكن في ملامحه طيبة.. ليس غريبًا أن أتذكرهما.. وقتها كنت أهتم بالمرضى حقًا، وأشعر بآلامهم.. بالتأكيد ساعتها كنت أفكرُ في حمايةِ المريضةِ، وليس داليا.. لكن كأن الخبطة التي رجت مخي بعدها أفقدتني القدرة على

التعاطف.. بل القدرة على التفكير السليم.. ماذا حدث لنجوى؟.. هل استطاع زوجُها أن يعودَ بالدمِ في الوقتِ المناسبِ؟.. لم أعرفْ أبدًا.. والأسوأ أنني لم أهتمّ بأن أعرفَ.. ماَ ذنب نجوى؟!.. وما ذنب كل من عاملتُهُم بتعالٍ وإهمال بعد ذلك؟!.. ضربة واحدة من يد واحدة، لكني عاقبتُ عليها كل الفقراء والبسطاء.. كأني كنتُ أبحثُ عن مبرر لأعتنقَ مذهبَ أستاذي.. مذهب القسوة...

أنظر لكلمات داليا وهي تتطاير من فمها في كل اتجاه.. أستمتع بمقاطعتها مجددًا:

- عارفة يا داليا.. أنا عمري ما عرفت اللي حصل لنجوى...
- الحالة؟
- صحيح هو احنا ليه بنقول عليها الحالة؟.. مصطلح غريب جدًا.. كأننا بنتكلم عن شيء مش إنسان له حياة وأسرة وأحلام...
- انت بتتفلسف بقى!...
- بجد؟.. كويس.. آديني اتعلمت منها الفلسفة كمان...
- من مين؟
- داليا انتي عارفة الفيزيتا في عيادة باباكي بكام؟
- إيه السؤال ده؟!
- أكيد عارفة.. انتي الأسيستانت بتاعته، وأكيد بتاخدي نسبة.. أغلى عيادة رمد في البلد...
- مش عارفة.. مش عارفة مالك النهارده!

فنجان القهوة سيئ المذاق...

- ممكن تحددي لي معاد عشان أشرب القهوة مع بابا؟

اتسعت عيناها من المفاجأة، لكن لم تَبْدُ مفاجأة سعيدة...

- أتقدم لك.. أكيد بابا حيرفضني.. دكتور الفلاحين الغلبان بيتقدم لبنت الأكابر.. مش ممكن.. ده انتي آخر عريس رفضتيه كان إبن لوا تقريبا...
- انت بجد حتقابل بابا؟
- آه.. بس شكلك مش مبسوطة.. مع اني معتمد عليكي إنك تتمسكي بيا.. ونبتدي حياتنا مع بعض من الصفر..
- أكيد.. أتمسك...
- تيجي معايا في عيادتي اللي عند الفلاحين.. على فكرة هناك مش فلاحين أصلا.. انتي بس اللي ماتعرفيش غير وسط البلد...
- ...
- نعالج الناس برحمة.. باحترام.. من غير مايدفعوا دم قلبهم.. انتي عارفة ليه الكشف غالي في عيادة أبوكي؟.. مش عشان دكتور شاطر.. بس عشان يقدر يوافق لهم على العمليات بتاعتهم في المستشفى.. صحيح لما نتجوز حنقعد مع ماما في بيتها.. مانتي عارفة إن مالهاش غيري.. واللا ممكن ماتعرفيش.. بابا طلق ماما من وانا عندي عشر سنين.. كنت مكسوف أقول لك.. إيه؟.. بتقومي ليه؟.. خلاص مش حاروح أطلبك من بابا.. بس أنا عاوز أقول لك اني ماكنتش

أقصد أدافع عنك يوم ما اتضربت وانا جنبك.. دي كانت مجرد صدفة...

قامت وتركتني قبل أن أكمل.. أحسن.. كنت سأخبرُها أني لم أحبّها أبدًا.. وهي أيضًا لم تحببني.. كنت بالنسبة لها مغامرة تتمرد بها على سيطرة والدها.. لتقنع نفسها أن لها إرادتها المستقلة...

***

مع الوقت أدمنت المشي في الشوارع.. تحديدًا تلك الشوارع المحيطة بعيادتي التي كنت أسميها بأرض ال... الآن أصبحت أشعر بالإهانة من كلماتي السابقة.. كأنها موجهةٌ لي وليست مني.. أمشي هنا في الصباحات الرائقة.. أتأمل البيوت والطرق التي تنسج جمالها الخاص.. أجلس على أحد المقاهي؛ لأتناول إفطاري، وأتبادل التحيات الودية مع العابرين.. اكتشفت أن القهوة على هذا المقهى أحسن بكثير من القهوة الباردة في ذلك الكافيه اللعين، حيث كنت أجلس مع "بنت الدكتور".. يكفي أن القهوجي يسألني: "فنجان واللا كوباية؟"

أظن أنني قرأت ذات مرة أن الشوارع كالكتب.. يمكن أن تقرأ وتتعلم منها الكثير.. والحقيقة أنني عبر سنِي عمري لم أعرف إلا كتبَ الدراسةِ.. قضيت نصف عمري مع كتب الطب المليئة بالأمراض.. لهذا قرأت الطب جيدًا، لكن فشلت في أن أقرأ العالم.. اكتسبت من حجي اليومي للشارع الكثير.. ناسًا وأفكارًا وحكايات.. تغيرت نظرتي للعالم، وحتى لهذا الشارع..

كلامي السابق عن العزبة والأرض التي أمطرت على أصحابها الملايين.. كلام خائب.. فالسماء لا تمطر ملايين بهذه البساطة.. الأغلب تخلوا عن أراضيهم مقابل قروش بخسة.. وحتى من "لعبت معهم البلية"، واستطاعوا أن يتحولوا من مزارعين لمقاولين.. من قال إن نهايتهم كانت سعيدة؟.. كيف بمن عاش في مشاكل الري والسماد أن يتفهم مشاكل سعر طن الحديد؟!.. انتهى بهم الأمر واقفين مكانهم بين عدة أعمدة أسمنتية بلا معنى.. خسر الفلاحة ولم يكسب المقاولات.. قرأت الخيبة في نظراتهم في الشوارع والمقاهي.. ليست نورا – المجنونة – طالبة جامعية كحالة استثنائية .. جالست الكثير من الشباب.. متعلمين ومثقفين.. على اطلاع بالتاريخ والاقتصاد والسياسة.. غرقت في الحرج حين عرفت أن معظمهم يعرفون منشوراتي على الفيسبوك.. لكنهم تعاملوا معي بلطف.. يبدو أنهم اعتبروها مجرد دعابات سخيفة من رجل يفتقد إلى حس الدعابة...

***

بالفعل لم أكن حفيد اللورد كرومر، أو من أبناء عائلة محمد علي.. لكن المضحك أنني لست ابنًا لهذه المدينة.. بل وُلدت في قرية صغيرة في قلبِ الريف.. قرية أبي التي نشأ فيها قبل أن يعمل موظفًا في المدينة، حيث التقى بأمي وتزوجها.. فاجأ المخاض أمي وهي في زيارة لقرية أبي.. لكنها أصرت على أن يسجل ميلادي في مدينتها الكبيرة.. أذكر جيدًا الإجازات التي كنا نقضيها هناك دائمًا.. الانطلاق بين الحقول بأقدام حافية وتسلق الأشجار والعوم في الترعة رغم تهديدات أمي المستمرة..

أنطلق وسط أولاد أعمامي وعماتي، فلا يمكن أن تفرقني عنهم.. كان بيت جدتي كبيرًا مبنيًا بالطوب الأحمر.. تؤكد دومًا: "جدك اللـه يرحمه أول واحد يبني بيت بالطوب الأحمر في البلد".. كنت أراها جدتي الطيبة.. بجسد قصير ممتلئ ووجه أبيض مبتسم دائمًا...

حتى بعد دخولي المدرسة كنت أقضي معظم إجازة الصيف في "البلد".. لكن في "سنة رابعة" ظهر الشقاق بين أبي وأمي.. أعود من المدرسة، لأجد البيت مقسومًا بين صراخ أبي الغاضب ودموع أمي.. في الإجازة أخذني أبي معه إلى البلد، لكن أمي لم تحضر.. هناك أخبرني أن عمي الكبير قد مات، وهو يجب أن يبقى في البلد ليحل محله.. وخيرني بين البقاء معه في القرية أو مع أمي في المدينة.. لم أفهم الكثير مما قاله، لكني تذكرت صراخه العصبي وبكاءها الدائم؛ فخفت منه، وأشفقت عليها.. واخترت أمي.

في العام التالي أتى أبي واصطحبني؛ لأمضي الإجازة في بيت جدتي.. أصبحت له زوجة أخرى أنجبت له طفلًا جديدًا.. لم أقتنع أبدًا أنه أخي.. بل كرهته.. شعرت أنه اختطف أبي مني للأبد، وأغلق كل طرق عودته.. حين رأيت جدتي تحمله، وتغني له بوجه مليء بالفرح أيقنت أنها لم تصبح جدتي الطيبة بعد الآن...

حين كبرت فهمت الأوضاع التي أجبرت أبي على أن يحل محل أخيه الأكبر بعد وفاته.. كان عمي الأكبر هو المسئول عن أرض العائلة.. لهذا وجب على والدي أن يترك عمله وإقامته في المدينة؛ ليتفرغ للأرض.. لكن ما لم أتفهمه حقًا أنه كان مجبرًا على أن يتزوج من أرملة أخيه.. في زياراته

النادرة لي كان يكرر أن ما فعله هو الشرع.. وكان القصد منه أن يراعي أولاد أخيه الراحل.. لم أستطع تقبل أن يكون هذا على حسابي، وعلى حساب أمي التي فضلت الطلاق والحياة في مدينتها.. دأبت أمي على اتهامه بالأنانية: "لو كنت سمعت كلام أبوك كان خلاك فلاح في الأرض زيهم.. بس أنا بعته وبعت عمري كله عشان تطلع دكتور..."

بمُضي السنوات زاد عدد "أطفال" أبي.. لكن لم أستطع تقبل أنهم إخوتي.. ومع الوقت لم أستطع تقبل أن هذا الرجل الذي يأتي كضيف مرة في السنة هو نفسه أبي، الذي كان يحملني على كتفيه وأنا طفل صغير...

***

بالتأكيد أزلت صورة الجاموسة من على حائط العيادة.. وضعت مكانها لوحة لمنظر طبيعي؛ لتهدئة نفوس المرضى.. حين بدأت أهتم بكل تفصيلة في العيادة؛ اكتشفت أنها كانت عيادة كريهة حقًا.. كل شيء فيها مصنوع بتسرع ودون تركيز.. كأن كراهيتي للمكان انعكست على العيادة.. حوائط رمادية عارية وكراسي حديدية قديمة.. وحدة ريفية حقًا.. لكن قليل من الطلاء كان كفيلًا بتحويلها لعيادة حقيقية...

***

جلستُ في مقعد خلفي في قاعة المحاضرات.. أستمع لشرح "فلسفة شوبنهاور".. بينما أراها وهي جالسة في أحد الصفوف الأمامية.. انتظرت

حتى انتهت المحاضرة، واقتربت منها.. ناديتها.. ظهرت عليها المفاجأة حين رأتني.. التفتت حولها، وحين تأكدت أن لا أحد يلاحظنا أشارت لي؛ لأتبعها خارج القاعة.. جدت السير بين حدائق الكلية وأنا أحاول اللحاق بها.. ناديتها مرة أخرى؛ فتوقفت غاضبة:

- إيه؟.. انت ايه اللي جابك هنا؟.. وازاي دخلوك من بوابة الكلية أصلًا؟!
- إيه اللي جابني؟!.. إعجابي بفلسفة شوبنهاور.. جاي عشانك طبعًا!
- وبتقول عليا أنا اللي مجنونة؟
- انتي فين؟!.. بقى لك يومين مش بتردي عليا...
- تقوم تيجي لي الكلية؟!...
- قلقت عليكي.. مالك؟
- ماف...
- إوعي تقولي مافيش.. أحسن بعدها تقولي لي الاهتمام مابيتطلبش.. خلي الكلام ده بعد الخطوبة...
- خطوبة؟!.. خطوبة مين؟!...
- أنا وانتي طبعًا...
- ومين قال إننا حنتخطب إن شاء الله؟.. وأنا إيه اللي يخليني أتخطب لواحد رخم زيك؟!

كانت تحاول أن تبدو طبيعية.. لكن لم تستطع أن تخفي توترها.. تأملت ملامحها الجميلة لدقيقة.. رأيت الحزن داخل عينيها الملونتين...

- مالك؟.. جالك عريس وبيغصبوكي تتجوزيه؟!

- لأ طبعًا إيه شغل الأفلام ده!!.. مين الحمار اللي يتقدم لي أصلاً؟!
- احترمي نفسك...
- يوووه!.. ما تبقاش حمار بجد.. الموضوع أكبر كده...

كنا قد وصلنا لكرسي حجري في طرف إحدى الحدائق.. جلست عليه وهي تنفخ في حنق.. جلست بجوارها وظللت صامتًا.. انتظرت حتى بدأت بالكلام:

- كل حاجة في حياتي حتتغير.. بابا لقى شغل في الخليج.. واحنا كمان حنسيب هنا، ونروح نقعد عند خالي في البلد...

استوعبت كلامها على مهل.. كنت أعرف أن أباها مثل كثيرين يبحث عن فرصة سفر.. شعرت أن الريف الذي اختطف مني أبي سابقًا يخطف حبي هذه المرة.. لكن حاولت أن أهون عليها:

- دي مش نهاية العالم.. وانا حفضل جنبك مهما رحتي.
- بلاش كلام روايات.. أنا مجنونة فعلاً زي ما بتقول.. احنا أصلا مانتفعش لبعض.. يا ريتني ما عرفتك أصلاً...
- من بكره حروح لبابا قبل ما يسافر واطلبك منه...
- ماينفعش طبعًا.. انت عارف إني مش حرتبط بحد قبل ما آخد الليسانس.. ويمكن الماجيستير كمان...
- بس الظروف دلوقت اتغيرت...
- الظروف دلوقت أسوأ.. بابا استهلك كل مليم معاه، وساب شغله في الشركة هنا عشان موضوع السفر.. ده أسوأ وقت تفكر تقابله فيه...

- حستنى لما الظروف تتحسن.. أو لما يرجع بالسلامة.. أنا عارف ومتأكد إنك الإنسانة اللي أنا عاوزها.. المجنونة اللي انا عاوز أكمل معاها حياتي كلها.
- أنا مش عارفة أنا دخلت في حياتك إزاي.. عارف لما كنت بشوف بوستاتك على الفيس كنت بقول لنفسي جلنف.. بس مز.. عشان كده جيت لك العيادة...
- بس اوعي لما تروحي البلد يقولوا لك اتجوزي ابن خالك...
- مش بقول لك جلنف؟.. وحتى لو قالوا.. حيجوزوني غصب عني؟!.. إنت لسه فاكرني جاموسة بيضا؟!...

ضحكتُ...

- أنا اللي خايفة منك أحسن تضحك عليك دكتورة واللا ممرضة وتخليك تنساني وتجري وراها...
- لأ خلاص.. كان عندي دكتورة، وراحت الحمد لله.. وبعدين اللي يعرفك لازم يكره الجنس الناعم كله...

تجاهلت دعابتي.. وبدت عليها جدية مفاجئة:

- أنا مش حاجي الكلية تاني إلا على الامتحانات.
- حستناكي يا مجنونة...

ودعتها بابتسامة حاولت أن أجعلها واثقة قدر استطاعتي.. لكن شعرت بانقباضة في قلبي تخبرني أني أراها لآخر مرة...

هوامش على دفتر الفتة

- **أحمد؟**.. أهذا أنت حقًا؟!
- ياه!!.. لم أرك منذ أيام الدراسة.. كيف حالك يا صديقي؟.. أين أنت الآن؟

لم أكنْ أهتمُّ حقًا بمعرفةِ أحواله.. بالواقع أنني لم أتذكرِ اسمه أصلًا.. تذكرتُ فقط وجهَهُ الكالحَ النحيل من سنواتِ الدراسةِ...

- أنا الآن أعمل في الهيئة.. هيئة الأغذية...

شعرت بانقباضة مؤلمة في معدتي...

***

قرار

بإنشاء الهيئة العامة للتغذية الصحية

مهمة الهيئة:

الحفاظ على الحالة الصحية للمواطنين عبر متابعة نظامهم الغذائي.

مسئوليات الهيئة:

- تحديد الوجبات اليومية لجميع المواطنين بناء على حالة المواطن الصحية ووزنه.
- توفير أذونات الصرف لمكونات الطعام المحددة للمواطنين.

يحظر على أي مواطن مخالفة النظام الغذائي اليومي المحدد له، وإلا سيعاقب بالحبس والغرامة، ويحول لمركز إعادة التأهيل الغذائي.

***

يبدو أن الانقباضة الخائفة من معدتي تركت أثرها على وجهي.. فبادرني قائلًا:

- لا تخف.. أنا "منكم"...
- منا؟.. ما ال...؟
- أنا أعرف.. أعرف أنك حصلت على كيس مكرونة الأسبوع الماضي.. عبر إذن مزيف.
- ...

***

أجلس أمامه عبر منضدة هذا الكافيه الصغير الذي اصطحبني إليه.. الجارسون يعامله باحترام زائد بالطبع.. يخرج "صديقي" دفتر الطعام

الأسبوعي الخاص به.. يبدو دفترًا سمينًا.. يقتطع منه إذني صرف يعطيهما للجارسون:

- اتنين "ميلك شيك".. أنت ضيفي.

بالفعل.. خلال دقيقة كان على المنضدة أمامنا كوبان من المخفوق اللبني المثلج...

لم أستطع أن أمنع تساؤلي:

- إذا فأعضاء الهيئة لهم استثناءات حقًا...
- طبعًا.. بدل طبيعة عمل.. وإلا لما تحملوا كراهية الناس لهم.

رغم تخوفي أخذت رشفات سريعة من الميلك شيك.. لم أتذوقه منذ.. ربما منذ كنت في المدرسة...

- أنت معنا.. يجب أن تنضم لنا.. نحتاج لخبراتك في "تعديل" الأذونات.
- معكم؟!.. من أنتم؟
- لنقل إننا مجموعة من محبي الطعام...

أهمس:

- متمردون على الهيئة؟

- متحررون.. لماذا لا تحضر حفلنا القادم؟.. ديش بارتي كما كان يسميه آباؤنا.. ستجد فيه حرفيًا ما لذَّ وطاب...

- حقًا؟.. هل سأجد...؟
- نعم.. ستجدها...

***

الفتة.. الممنوع الأكبر...

بين كل دفاتر الوجبات الأسبوعية التي تصدرها "الهيئة" .. صارت الفتة هي الصنف الأكثر ندرة على الإطلاق.. يقال إنك قد تجدها في دفترك مرة في العمر.. إن كان في العمر كفاية.. رغم أن أمي تقسم أني أكلتها ذات مرة في سن الثالثة – قبل إنشاء الهيئة – فإنني لا أتذكر طعمها ولا شكلها على الإطلاق...

لا أعرف عنها إلا تعريفات هزيلة من الكتب والإنترنت: وجبة ذات أصول شرقية تتكون من الخبز والأرز والمرق.. ربما رأيت لها صورة أو اثنتين.. لكن يقال إن صورها منعت، وأزيلت بأمر الهيئة...

لا أحد يعرف بالضبط سبب تحريمها القطعي هي بالذات.. ربما لأنها غير مناسبة لأي فئة من الناس.. السمان تزيدهم سمنة.. والنُحاف تغلق معدتهم بسرعة؛ فلا يزيد وزنهم كثيرًا.. غير مناسبة لمرضى القلب أو السكر أو القولون أو.. أو... وربما لهذا صارت المرغوب الأكبر.. لأنها مثال لطعام يؤكل للمتعة فقط...

***

بعد حيرة طويلة ارتديت قميصًا واسعًا.. ربما يؤدي ذلك الـ"ديش بارتي" إلى زيادة مفاجئة في الوزن تحتاج لإخفائها.. طريق طويل لمنطقة

مجهولة.. كلما راودني التردد وفكرت في العودة ركبني جنون الفتة؛ فأكمل الطريق...

بيت واسع مهجور.. لا يوحي من الخارج بكل الضجيج في داخله.. مطبخ مفتوح واسع مليء بالطهاة.. يعملون بكل قوة وسرعة، وبلا حساب للكميات.. عشرات.. ربما مئات الأشخاص جالسون على مناضدهم يتأملون الطهي بتلذذ...

طاهٍ مرح وعجوز يسكب المرق على طبق كبير من الخبز المقمر.. إذن هذه هي...

سألت صاحبي:

- لماذا لا يتكالب الكل على تناولها بالذات؟
- لأنهم جربوها قبل ذلك في حفلات سابقة.. المستجدون فقط من يقتلهم الفضول فيبدأون طعامهم بها...

***

أجدها في طبق أمامي.. ملعقة أولى مترقبة.. ثم معالق عديدة متلذذة.. الجسد يدخل في خدر خفيف.. مشابه لما شعرت به يوم حصلت على قطعة من المكرونة بالباشاميل في دفتري...

نظرت لصاحبي بابتسامة وأنا أرشف العصير.. اقتبستُ من أبي نواس:

- ألا أعطني الفتة وقل لي هي الفتة...

ضحك وهو يرشف العصير أمامه.. توقف فجأة، واستطعم العصير فبدا عليه الرعب:

- المخدر؟!.. اللعنة.. لقد اخترقونا.. انكشفنا...

شعرت بدوخة مفاجئة.. وسمعت الصوت وأنا أفقد الوعي:

- اتركوا الملاعق.. شرطة الأغذية..، سلموا أنفسكم.

رعاية صحية

(١)

العامل

من يصدق أنه هو؟.. حقًا هو!!.. غريب أني لم أعرفه.. لغاية الآن أستغرب أني لم أتذكره من أول نظرة...

ربما لأن الموقف كان معتادًا.. شاهدت مثله كثيرًا في جلستي على "مكتب استقبال المنتفعين" عند بوابة المؤسسة.. رجل شيخ كبير يرتدي بدلة صيفية عتيقة الطراز.. يمشي مستندًا إلى عصا خشبية.. يقف في انتظار المصعد المتهالك؛ لينقله للدور الأول.. تعب من الانتظار على قدميه الأكثر تهالكًا.. خبط بقوة على باب المصعد.. انتظر لثوانٍ لكن لم يحدث شيء.. احمر وجهه، ونفخ بضيق.. ثم أخذ عكازه الخشبي، وخبط به على الباب المعدني بعنف.. هنا قمت من مكاني؛ لأمنعه قبل أن يكسر

الباب، ويسبب لنا مصيبة.. لكن قبل أن أصل له أمسك بصدره، وبدا عليه الاختناق.. وطب ساكتًا على الأرض! حينها فقط وصل المصعد.. وكان عامله هو أول من عرفه حين اخترق الزحام حوله:

- يا نهار أسود.. إنه هو.. حقًا هو!!

رأى التساؤل في عيوننا...

- ألم تعرفه؟!.. ألم يعرفه أي منكم؟!.. إنه هو.. هو...

(٢)

المدير

هو.. حقًا هو!!.. الزعيم الأكبر.. أبو الشعب.. ينتهي هنا.. على أرض مكتب "مؤسسة الرعاية الصحية" الذي أديره.. على بُعد أمتار من مكان سقوطه توجد اللوحة الشرفية للمبنى، واسمه عليها: في عهد الزعيم...

منذ نزوله عن السُلطة لم نعرف أي خبر عنه.. لكن لم أتخيل أن يصل به الحال؛ ليكون أحد "المنتفعين".

حين رأيت جثمانه الهزيل مُلقى على الأرض بجوار باب المصعد؛ انتابتني رجفة.. كانت هذه هي المرة الثانية التي أراه فيها من هذا القرب.. المرة الأولى كنت في الخامسة عشرة.. في عيد العلم.. انتابتني نفس الرجفة وأنا أراه واقفًا أمامي.. بجسده الفارع ومهابته الأسطورية.. سلمني شهادة تقدير، وربت على كتفي.. احتبست أنفاسي.. تمنيت أن أنظر في عينيه.. لكن لم أستطع.

(٣)

الوزير

حين رأيت الخبر اندهشت.. ليس من وفاته.. بل لأنه كان حيًا.. بعدما كان ملء السمع والأبصار صار نسيًا منسيًا.. حتى وفاته لم تخرجه من النسيان.. مجرد خبر متناهي الصغر تاه وسط زحام المَعين الإلكتروني.. المدهش حقًا هو كيف مات.. في "الرعاية الصحية".. القبر الذي حفره لنفسه.

حين كنت وزيرًا للصحة.. كنت أناشده في كل اجتماع:

- يا زعيمنا.. القطاع الصحي يحتاج لأضعاف ميزانيته الحالية.. فقط لننقذه من الانهيار.

ليمنحني فقط نظرة غاضبة.

رغم ذلك تخرج الأخبار بـ"زيادة هائلة في المقررات المالية للصحة".. أما في الحقيقة.. فكل هذه "المقررات" تذهب للسلاح.. فقط للسلاح.

في النهاية حين واجهته، وأخبرته أن التاريخ لن يرحمنا.. ابتسم لي ابتسامته الأبوية.. كان رحيمًا بي.. اكتفى بإلقائي في السجن.. متهمًا باختلاس الميزانية "الهائلة".

(الرئيس)

عائدة توًا من الشارع الحار إلى شقتها الصغيرة.. كانت تخلع ملابسها المتعرقة حين رن هاتفها:

- السيدة...؟
- نعم.
- يؤسفنا أن نخبرك أن والدك.. الزعيم العظيم.. قد توفي إلى...

أغلقت الخط.. نظرت إلى صورة أمها على الحائط.. ربتت عليها، وانسالت دمعة من عينها...

ثم شغلت المَعين الإلكتروني.. طلبت موسيقى "عزيزة".. أخذت ترقص عليها.. وهي تخلع ملابسها ببطء.

التابعون

بكاء.. بكاء.. بكاء...

بكاء.. بكاء.. بكاء...

وهكذا طوال الليل.. الليل حلم طويل وممتد بالبكاء.. أرى نفسي أبكي وأنا في المعبد أمام النُصب الأعظم.. حين أتوسل أمام النصب لطلب المغفرة لكِ يأتيني صوت مُزلزل: "أتركها لربها.. أتركها لربها.. هو أعلم بها...". أراني أخرج من المعبد في هرولة لهاث.. وأصل إلى المقبرة.. أصل إلى قبرك لأجد جسدك النحيف موضوعًا فوق القبر.. شعراتك الشائبة الكثيرة تبدو أنصع.. أقرب للون الذهب.. وشعراتك السوداء أكثر سوادًا.. بكاء.. بكائي مستمر.. ويملأني يقينًا أنك ستقومين من رقدتك.. أناديكِ وسط بكائي.. "مانيدا".. لا يتغير شيء. مرة أخرى "مانيدا.." لا شيء.. في الثالثة أمد يدي

لأوقظك.. وحين ألمسك أشعر بجسدك باردًا ومتحجرًا تمامًا.. جسدك تمثال رخامي...

بكاء.. بكاء.. بكاء...

أستيقظ وظل البكاء لا زال يخنقني.. رائحة الدخان القاتمة تملأ الحجرة.. لوهلة أغرق في الحيرة.. هل هو حلم أم حق؟.. حلم بالتأكيد.. لكن.. أحس على وجهي ببلل دموع حقيقية.. وفي المرآة أرى عينين مضعضعتين...

***

وأنا واقف مع رفاقي من "التابعين".. في انتظار السماح لنا بالدخول لحضور جلسة "الكاثاردور"[١] لليوم.. بدا الإرهاق عليّ.. حين رآني "داين" أدرك ما بي:

- وجهك تعِب.. لا زلت لا تنام نومًا حسنًا؟
- ...
- الوقت يمضي يا وارهول.. اقتل حزنك واستسلم للنسيان.

أومأت له أن يصمت.. لم أحب أن يشعر من حولنا بضعفي.. أنقذني من ثرثرته فتح بوابة "الكاثاردور".

جلسنا في أماكننا المعتادة في شرفة المراقبين.. وأسفل منا كانت القاعة الرئيسية ممتلئة بالأعضاء.. ينتظرون لدخولنا؛ لتبدأ المناقشات.. بدأ رئيس المجلس "ماندي" طقوس الجلسة.. نطق الجملة:

[١] الكاثاردور: بيت الناس، البرلمان.

- "صوت الحق عالٍ حتى مع أخفت الأضواء".

فخفتت إضاءة القاعة إلى أقصى حد، وبدأت المناقشات.. مع تسليط الضوء على المتحدث فقط.. بدأ النقاش بحديث "سيدو" الكافر بصفته زعيم الأغلبية.. فانطلقت صيحات الاستهجان منا.. كان "سيدو" قد تقدم باقتراح يحظر على عامة الناس الحضور إلى "الكاثاردور" كمراقبين.. ويسمح فقط بحضور الإخباريين والقضاة وأعضاء المجالس الصغرى.. حاول الكافر أن يطلب التصويت على التشريع مباشرة.. لكن "كالد" – زعيم المعارضة المؤمنة – كان بالمرصاد.. وأصر على المناقشة.. أفحمه "كالد":

- ينص الكتاب الأعلى على أن للناس الحق الكامل في الرقابة على "الكاثاردور".. وهو المتحقق حاليًا بالسماح لكل من أراد بأن يحضر جلساته كمراقب.. ولذا نحن نرى الوضع على ما هو عليه...

رد "سيدو":

- جل جلسات المجلس تلغى بسبب تدخل الجمهور المراقب.. ورغمًا عن ذلك أنتم ترون الوضع على ما هو عليه؛ لكي يستمر أتباعكم في ملأ الجلسات...
- ليسوا أتباعنا فقط.. شرفات الناس المراقبين تمتلئ بأتباعكم أيضًا...

- لكن أتباعنا لا يصرخون، ولا يقاطعون المتحدثين، ولا يعترضون.. لا يهتفون ضد المجلس وأعضائه.

زاد الصفير وصراخ الاستهجان أكثر...

***

"مانيدا".. "مانيدا".. لم أنادها بخالتي طوال حياتي.. كانت دومًا "مانيدا" فقط.. أمي وأختي.. وحبيبتي قبل كل شيء.. تبدو الآن في ذكرياتي كما في أحلامي بشعرات ذهبية ناصعة.. تتزايد بمرور الدهر.. ذكريات لا تبهت.. وهي تصطحبني إلى الصلاة الأسبوعية في "الشاكاردور"[1].. وهي تلقنني صلوات التعبد المختلفة.. وتحتضنني بسعادة مع كل صلاة جديدة أحفظها.. وهي تتابع دروس "الشاكارسد"[2] لي مرة وراء مرة.. وتبتهل شكرًا لعلمي في الفقه.. في ذلك الحين كان المؤمنون والتابعون يَحكمون بحكم "الشاكار".. ولولاها.. لولا "مانيدا".. ما نسي الناس أمي...

***

ساعة أو أكثر من المناقشات بين أعضاء المجلس من الطرفين.. يتلاسنون فقط حول ما إذا كان من حق حرس "الكاثاردور" أن يتدخل ويطرد المراقبين أم لا.. وفي النهاية عاد السجال ثانية بين زعيمي الفريقين.. تكلم "كالد":

(١) الشاكاردور: بيت الشاكار. المعبد في عقيدة "الشاكار".
(٢) الشاكارسد: شيخ الشاكار، رجل الدين في عقيدة "الشاكار".

- لماذا تستكثرون على الحضور أن يصرخوا ليعترضوا؟.. هو رأيهم الحر.. أليس هذا هو "حكم الناس" الذي تعبدونه؟

رد "سيدو":

- حكم الناس هو الذي أسقطكم.. الانتخابات الحرة هي التي أخرجتكم من مقاعد السُلطة.. بعد سنوات طويلة من العنف والقمع وقتل الناس بالشبهة...
- وها أنتم أولاء وصلتم إلى السُلطة.. فماذا فعلتم بها؟ لم يأت في عهدكم سوى الفسق والكفر والزنا.. وكل ما يخالف الدين.. ها هن نسوة السوء ينطلقن عاريات تمامًا في الشوارع.. والفاحشة تحصل في كل مكان.. في ظلال البيوت وتحت أسوار الحدائق.. المجاهرة بالكفر صارت حرية.. وحرق الخبز صار من أهون الأمور.. حتى كاد الكفار أن ينظموا طقوس حرق الخبز في الشوارع.. ماذا فعلتم بسُلطتكم في هذا كله؟.. تركتم كل هذا وكرستم لأنفسكم.. وقدمتم هذا التعديل الأبله.. تريدون أن تخرجوا الناس من "بيت الناس"...
- وكيف لنا أن نفعل بينما التشريع معطل؟
- أنتم من تعطلونه بعرض مثل هذا القانون.. أما نحن فنرى الوضع على ما هو عليه...
- أنتم ترون الوضع على ما هو عليه؛ لأنكم تحبون الوضع على ما هو عليه.. تحبون أن يبقى أتباعكم من الرعاع والدهماء يصرخون ويعولون.. يُفشلون كل أمور المجلس...

وهنا وصلت الحمية بالتابعين إلى أقصى درجة.. "داين" بجواري يكلمني وسط الصراخ:

- سيدو..ابن الكافرة.. إن قتله مما يرضى عنه الرب...

نظرتُ له، ومضغتُ صمتي لثوانٍ.. كان التابعون قد بدأوا في سباب "سيدو"، وأخذوا يكورون الأوراق، ويقذفونها نحوه.. ودوى صوت "ماندي":

- تُلغى الجلسة.. تُلغى الجلسة...".

استعدتُ صوتي، وعدت أصرخ معهم:

- يا ابن الكافرة.. يا ابن الكاااااافرة...

***

تبقى ذكرى ذاك اليوم هي الأكثر رسوخًا.. "وارهول".. نادتني "مانيدا".. بينما كنت أكرر قراءة الصلاة الجديدة التي علمنيها "الشاكارسد".. دخلَت إلى غرفتي.. "وارهول.. لماذا لا ترد؟".. أشير بعيني إلى كتاب الصلوات في يدي.. وأكمل التمتمة.. تقف أمامي متمعنة.. ثم تعاجلني بصفعة.. "أترك هذا الآن وأَنْصِتْ لي...".. أقبل كتاب الصلوات، ثم أضعه في مكانه.. وأنظرها وأنصت.

- وارهول.. يومان وتبلغ عامك السادس عشر...

أومئ لها مصدقًا...

- سيحق لك حينها الاطلاع على ملفك وملفات أهلك الأمنية...

أومئ...

- والآن.. ستجد في ملف أمك.. ما أحب أن تعرفه مني أولًا.. ستجد في ملفها.. أني أنا من أخبرت عنها للسُلطات.. أنا.. يا وارهول.. من أخبرت أنها من الكفار حارقي الخبز.. لك أن تعي هذا.. ولك أن تفعل ما تشاء...

ثم صمتت، ونظرت للأفق بقوة.. برهة من الصمت.. ثم قمت فقبلت ركبتها وباطن كفها:

- مانيدا.. أنتِ أمي.. أما هي فكافرة أتبرأ منها بحق الدين.. إن لم تخبري عنها لربما كانت لعنة الكفر قد حلت عليَّ...

رفعتُ عينَيَّ لوجهها لأجده غارقًا في الدموع.. فأقوم لأحتضنها.. وأقبل جبهتها وخدها.. وفمها.. ونغرق في البكاء...

***

أضعنا زمنًا أطول من المعتاد في جلسة "الكاثاردور".. والآن.. صار عليّ أنا وفرقتي من التابعين أن نُسرع.. لنقوم بورِدنا اليومي من تقديم الخبز المقدس.. كانت بداية سيرنا اليوم في أحد أفخر مطاعم المدينة.. صاحبه من المؤمنين المخلصين.. عرفنا حارس الأمن حين رآنا قادمين ومعنا أكياس الخبز المقدس.. أخذ يتحسس وجوهنا في حنو قبل أن يسمح لنا بالدخول.. تبدو لمسته مجرد تحية.. لكننا نعرف أنه يفعل ذلك؛ ليتيقن أن كل منا حليق

الوجه تمامًا.. كي لا يفسد الطقس المقدس.. أتوجه إلى المناضد بالترتيب، وأعطي لكل من الجالسين قطعة خبز.. مشفوعة بالجملة: "سيدي.. أقدم لك خبزي".. "سيدتي.. أقدم لكِ خبزي".. أشار لي أحد الجالسين على امرأة تشاركه المنضدة.. فعرفت من إشارته أنها أجنبية وعلى غير ديننا.. فأحنيت رأسي لها بود، وقلت الجملة: "سيدتي.. أتمنى أن أقدم لكِ خبزي يومًا ما...".

على المنضدة التالية تجلس امرأة مفردة.. حين اقتربتُ منها أشارت بيدها بأربعة أصابع مضمومة إلى أسفل.. ففهمت أنها مصابة بالحيض.. "سيدتي.. أتمنى أن أقدم لكِ خبزي يومًا ما".

في العصور القديمة كانت المرأة الحائض تمسك بأصابعها المضمومة بين فخذيها.. في إشارة إلى رفضها للخبز.. لكن رجال الشاكار رأوا الاكتفاء بإشارة أبسط منعًا للخجل.. ومن هنا جاءت إشارة الأصابع المضمومة.

على المنضدة التالية يجلس رجل وحيد غير حليق.. "سيدي.. أقدم لك خبزي".. أمسك مني قطعة الخبز، ونظر إليها لحظة.. ثم أخرج قداحته.. وأخذ يحرق بها الخبز المقدس.. أخذتني المفاجأة.. وفقدت صوتي لثوانٍ.. قبل أن أهتف: "كافر.. كافر...".. اجتمع حولي رفاقي من التابعين، وأخذوا منه الخبز المقدس.. ثم انطلقوا يضربون الكافر بقسوة.. أسرع حرس المطعم؛ ليخلصوه من أيدينا: "أتركوه لنا.. سنسلمه للشرطة".. ألكمه في أنفه بأقصى ما فيَّ من قوة:

"الشرطة؟!.. الشرطة صارت ناعمة الآن.. سيطلقون سراحه بعد ساعات.. لقد ضاع الدين.. اللادينيون أضاعوا دين الشاكار.. أضاعووووه...".

***

أمنيتي الكبرى الآن.. أن أستطِيع نسيان هذا اليوم.

كل الألم...

في ذاك اليوم.. مع عودتي من "الشاكاردور".. وجدت.. رائحة الدخان القاتمة تملأ أرجاء البيت.. "مانيدا.. متى تكفين عن استعمال ذلك البخور الرديء؟.. ذلك مما لا يرضى عنه الرب...".. أصعد إلى الطابق العلوي حيث تتصاعد الرائحة من غرفتها.. أفتح الباب لأجدها جالسة وأمامها طبق.. وفي يدها.. قطعة.. من الخبز.. تحترق...

لوهلة لم تنتبه لوجودي.. ثم التفتت لي ببطء.. بعينين أقرب لعيون المجانين.. شعرتُ بضباب الصدمة يغزو رأسي.. حين حاولت أن تتكلم.. استجمعت قوتي وصفعتها.. الدم الأحمر من جانب فمها.. "سامحني وارهول.. لم أستطع الاستمرار.. لم أستطع...".. ألقت بجسدها الجاثي لتحتضنني.. دفنت رأسها في صدري وأنا لا أسمع.. سوى دقات قلبي التي تخترق دماغي.. أمسك رأسها.. لأدفنها في صدري أكثر.. وبأقصى قوة ممكنة...

الإنكشارية

أكرهها.. نعم أكرهها.. مهما قالت إنها تحبني.. أكرهها حين تصرخ في وجهي، وتجرني جرًا لتحبسني في غرفتها مهما توسلتُ.. أكرهها حين تنظر لي بعينيها المرعوبتين قبل أن تغلق الباب:

- أنا أمك.. أخاف عليك...
- أكرهك.. أكرهك...

***

هل هي أمي حقًا؟!.. ربما هي خطفتني من أمي الحقيقية.. مثل الحكايات القديمة التي رأيتها في المَعين المرئي.. مثل "روبنزل".. ربما أنا مثلها ابن ملك أيضًا.. أو ابن "الإنكشارية".. لكن الإنكشارية ليس لهم أولاد!

ربما أمي الحقيقية هي خالتي.. أذكر وأنا صغير حين كنا نعيش عندها في الريف.. وسط الزرع بجوار نهر صغير.. كنت ألعب كثيرًا مع خالتي وأولادها.. نضحك طول اليوم.. أما هي – ذات الوجه المتجهم – فكانت تبتسم أحيانًا، ولم تكن تحبسني أو تصرخ فيّ.

في يوم صحوت وهي تحملني وتجري في ظلام الليل.. ركبنا مركبة سريعة أوصلتنا للمدينة.. بكيت كثيرًا في الطريق.. ولم أرَ خالتي بعدها أبدًا.

أخبرتني كثيرًا أن "هجومًا" حدث على بيت خالتي وبيوت القرية كلها.. لكني لن أصدقها.. فلم يظهر أي خبر عن هذا "الهجوم" في المَعين المرئي.. كذابة...

***

كلامها مليء بالكذب والتخويف.. "سيأتي الإنكشارية ويأخذونك مني".. تقولها دائمًا.. وكم أتمنى أن تكون حقيقة وليست كذبة.. الإنكشارية حُماتنا.. حُماة الدين والدولة.. تربوا على قيم الدين وقوة القتال منذ كانوا أطفالاً. لو يأخذونني حقًا ويجعلونني مثلهم.. لكن الإنكشارية هم أبناء الأعداء الذين أخذتهم الدولة.. بالتأكيد هي من "الأغيار" أعداء الدولة، لهذا تخاف أن يأخذوني منها.

منذ أيام.. حين خرجَتْ بالليل؛ لتذهب لعملها.. وقفتُ على الكنبة ونجحتُ أخيرًا أن أفتح الشباك، وأنظر للخارج.. أول مرة أرى الشارع من شهور.. رأيت زحمة المارة.. مر وسطهم جنديان من جنود الإنكشارية

الأبطال بزيهم الأخضر والأحمر؛ فأشرت لهما.. لكنها عادت فجأة، فنزعتني من الشباك، وأخذت تصرخ في: "هل رأوك؟.. هل رأوك؟"...

بعدها صارت تحبسني في الغرفة الداخلية، وتغلقها بالمفتاح حين تخرج.

أكرهها...

بكره بيخلص هالكابوس.. وبدل الشمس بتضوي شموس...

في الماضي - قبل أن يسيطروا على المَعين المرئي ويراقبوه – سمعتُ تلك الأغنية لُمغنية مجهولة.. انحفرت تلك الجملة في ذاكرتي، وصرت أرددها لنفسي مرارًا.. مع كل خسارة نلقاها.. خسارة قضية.. خسارة أرض.. صديق.. حبيب.. مع كل جرح.. كل وجع.. كنت أكررها لنفسي...

بكره بيخلص هالكابوس...

...

منذ ظهور الإنكشارية لم نجد سوى المرارة والهزائم.. ورغم ذلك حاربنا بقوة.. نظمنا المظاهرات.. زرعنا المقالات والأفكار.. صرخنا في الواقع وعبر المَعين المرئي.. حاربنا حقًا.. لكن كحرب طواحين الهواء.. في النهاية صرنا نحن "الكفار الأقذار.. أعداء الشعب وأعداء الدين...".

ابنك يشاهدهم بانبهار.. يصدق ما يتبولون به في أذنيه عبر المَعين الإلكتروني.. وحين أكلمه ينعتني بالكاذبة.. لا يريد أن يفهم أن هؤلاء ليسوا "جند الأمة"، بل هم سبب تعاسته.. هم من حرموه من أبيه.. منك.

لن أنسى هذا اليوم.. حين اقتحموا بيتنا بقوتهم الفجة.. كسروا الباب، وأخذوك من حضني.. أخذوك يا حبيبي.. ولم أرك بعدها أبدًا.. ثم عاثوا في البيت بحجة تفتيشه.. انتهكوا كل ما فيه.. ومن فيه...

حين مضوا شعرت أن حياة الفشل.. حياتي.. قد وصلت لنهايتها.. لكن لم أمتلك الشجاعة لأنهيها...

بعد أيام وجدت ابنك في داخلي.. فأعطاني سببًا.. لتأجيل النهاية...

...

حين استطعت أن أتحرك هربتُ إلى أختي في الريف.. جعلتني أقسم أن أنسى كل شيء.. أن أنساك.. وأنقطع عن "السياسة".

كانت تظن أن في هذا الكفاية.. أن هناك مهربًا ما.. مسكينة.. أدركت متأخرًا أن الأمر لا يختلف سواء قاومت أم استسلمت لا مفر منهم.. هم الموت.

حين كبرت سُلطتهم أكثر وأكثر هاجموا بلدة أختي الصغيرة.. داهموا البيوت.. قالوا إن أهل البلدة يدعمون "المعارضة الكافرة" بالماء والغذاء.

...

كل مدى يصل بي الفشل إلى حضيض لم أتوقعه.. حين عدت لأختبئ في زحام العاصمة.. أيقنت أنهم كالموت حقًا.. لا يتركون ولا ينسون.. وجدت اسمي على قائمة المطلوبين.. ووجدتهم توسعوا في نظام الإنكشارية.. لم يعودوا

يكتفون بالأيتام وأبناء الأعداء.. صاروا ينزعون أبناء المعارضين "الأغيار"؛ ليربوهم بينهم، ويجعلوهم من جنود الإنكشارية.. قائدهم الأغا هو من يشرف بنفسه على حملات البحث واصطياد الأطفال...

تنازلت عن الكثير.. لكن في النهاية نجحت في استخراج شهادة وفاة للولد.. خبأته عن عيونهم.. خبأته في ذلك البيت المظلم تحت الأرض.. تمنيت أن أخبئه في قلبي.. لكن ما الفائدة؟

الولد ينظر لي بشك وخوف.. المَعين المرئي سمم أفكاره.. أعود فجأة من "العمل" الليلي اللعين.. لأجده فتح الشباك.. ويشير لجنودهم في الشارع. .. انخلع قلبي...

- *هل رآك أحد؟ .. هل رأوك؟ ...*
- *...أنا أكرهك.. أكرهك...*

وحتى لو رأوه.. هل سيخبرني؟ .. لا .. فأنا الكاذبة وهم الصادقون.. كيف يكون ابني؟!.. بل كيف يكون ابنك حقًا؟!.. كيف؟!...

حين جاءني الخبر لم أندهش.. "امرأة من الأغيار تخبئ ابنها، وتدّعي موته؛ كي لا يتم تجنيده بين الإنكشارية".

هكذا دأب البشر على التعامل عبر آلاف السنين.. بـ "حرية".. ظلوا يقدسون تلك الحرية المزعومة؛ حتى صارت إلههم دون أن يدروا.. بينما الحقيقة أن الحرية المقدسة تلك لم تكن سوى الشر.. الطاغوت.

===

حتى أنا كنت مثلهم.. من الأحرار.. أو كما يحلو لضيقي العقل أن يسموهم "الأغيار".

آمنت بـ "الحرية" مثلهم، وأن للإنسان مطلق الحرية في حياته.. جسده.. فكره.. معتقده.. مطلق الحرية في كل شيء.. هكذا عشت.. فعلت كل ما يخطر على بالي.. فعلت حتى ما لا يخطر على بال أحرار هذا الزمان.

كان لي صديق وحبيب.. شاركني كل أفكاري وشهواتي.. قضيت عمري معه.. لكن في ذلك اليوم.. أخذ شهيقًا قويًا من المخدر السائل.. ومع الزفير قال: "هباء.. كل شيء هباء بلا معنى".. وكانت.. آخر.. زفرة.

===

بعدها انضممت للـ"مؤمنين".. وعبر سنوات الكفاح والهرب تيقنت تمامًا أن الحرية مهلكة.. وأن الراحة الحقيقية في الاستسلام التام.. الاستسلام لإرادة الخالق...

وحين قادني طريق الهرب إلى تركيا نضجت في رأسي الفكرة التي شغلتني لأعوام.. الإنكشارية.. استخرجتهم من التاريخ العثماني، ووجدت فيهم ضالتي.

وحين عدت بعدها إلى بلدي عرضت الأمر على قادة "المؤمنين".. رغم ضيق عقلهم ورفضهم الدائم لي فإنهم تحمسوا للفكرة.. وكانت بداية النصر.

===

حين فتحت ملفها تذكرتها من أول نظرة.. كادت قضيتها أن تقضي على الإنكشارية.. فضيحة مشينة.. حين هاجم أبنائي الإنكشارية منزل زوجها كان المطلوب القبض عليه فقط.. لكن وقع المحظور.. هاجموها واعتدوا عليها.. ربما كان قرار منع الإنكشارية من الزواج هو الذي أضعف عزيمتهم، وجعلهم يفعلون فعلتهم.. لكن قبل أن يسلبوها شرفها فقدوا شرفهم وغلبتهم شهوتهم.. لهذا لم تأخذني بهم شفقة.. حُكم عليهم بالموت.. وأُخفي أي أثر للأمر.

كما يفعلون دومًا.. طرقوا الباب بعنف.. وكما يفعلون دومًا.. اقتحموا الغرفة بسرعة، وأشهروا رشاشاتهم في وجهي أنا وابني...

ثم دخل هو.. اللحية البيضاء بنفسه.. تفحص الغرفة، حتى رأى الفتى.. ابتسم واقترب منه: "ما اسمك، يا بني؟".. وأوشك أن ينحني عليه.. وهنا تحركتُ...

كما يفعلون دومًا لم يقوموا بتفتيشي.. غرتهم أسلحتهم المصوبة نحوي...

في ثانية قمت بما حلمت به دومًا.. قفزت وتعلقت برقبة اللحية البيضاء، ووضعت سكيني فوق رقبته.

صرخت فيهم: "من قال إن الموت يخيفني؟.. قتلتموني من زمان!"

...

باغتتني سكينها على رقبتي.. اهتزت حركة "الأبناء"، وحارت بنادقهم وهي تصرخ فيهم وتهددهم.. صرخت في ولدها بكل قوة: "اهرب.. اهرب..." لكنه ظل متسمرًا مكانه.

لكن مفاجأتها لم تكن كافية.. من قال إن الموت يخيفني أنا؟

...

لا أعرف ماذا أفعل.. أمي تصرخ فيّ أن أهرب.. والقائد يصرخ أن أطلقوا النار...

كنت أحسب أن جنود الإنكشارية لا يخافون من شيء.. لكنهم خافوا حقًا.. حاول الأغا أن يخلص رقبته من سكينها.. ورغم ضخامته فإنه لم ينجح في التخلص منها.. نظرت لي وصرخت ثانية.. اهرب.. ثم صرخت بوحشية.. رأيت سكينها يدخل في لحم رقبته ودمه يخرج كأنه من خرطوم قوي.

مع حشرجته.. انطلقت رصاصات الإنكشارية.

...

هباء.. كل شيء هباء...

...

بكره بيخلص هالكابوس...

دعونا نتحدث عن سيمين

ماهينور:

الحق أنني حتى الآن.. ورغم مُضي السنين.. أحسد سيمين.. أحسدها على مقتلها.. إن كان الموت هو الحقيقة التي لا فرار منها.. فبالتأكيد ليس هناك ميتة أكثر بهاءً من التي حصلت عليها سيمين...

لو استطعت فقط أن أعرض التبادل.. فآخذ أنا هذه الميتة الرائعة وتحصل هي على الحياة.. أظنها ما كانت لترفض.. حتى لو أدركت ما حدث بعدها.. فلم أر من يحب الحياة والجمال.. مثل سيمين...

...

في ذلك الوقت.. لم تكن موجة القتل على الهوية قد انفجرت بعد.. ربما كانت هذه الواقعة تحديدًا هي إشارة البدء لكل الجنون الذي تلاها.. المؤكد

أن انتشار حواجز التفتيش في الطرق كان قد بدأ قبل عدة أشهر.. صار اعتياديًا وقتها أن يستوقف المسلحون مركبتك؛ ليسألوك عن وجهتك، وربما يطلبون أوراق هويتك.. ولم يكن الأمر ليتجاوز هذا حين استوقف ذلك الحاجز "توكتوك" سيمين.. لولا ذلك المسلح الملتحي ذو الملامح الشامية، الذي نظر لها في كرسي القيادة بارتياب.. ثم توجه إليها ليسألها:

- ما اسمك؟
- سيمين.
- أنتِ مسيحية إذن؟
- تفرق معاك في حاجة؟
- وما الضير إن رددتِ على سؤالي؟
- وانت تسأل بصفتك إيه أصلاً؟!

مرت ثوان صامتة.. وكل منهما يحدق في الآخر.. قبل أن يكرر:

- أنتِ مسيحية.. أم مسلمة؟

تأخر ردها لثانية...

- مسلمة يا سيدي.. أي خدمة تاني؟
- هويتك؟
- لأ.. مش حوريهالك.
- أريني بطاقة هويتك.. من فضلك.
- قلت لأ.. لن أريها لك.. بقولهالك بلغتك أهو...

في ثوانٍ.. انهار الوضع تمامًا.

سحبها من ذراعها فجأة لخارج التوكتوك.. المفاجأة لم تعطنا فرصة للحركة.. حاصرتنا بنادقهم في التوكتوك.. بينما هو يجرها إلى كشك خشبي تابع للحاجز على جانب الطريق.

- سنستبقيكِ هنا حتى تثبت هويتك.. الأمر لا يحتمل الجواسيس.

نادى على امرأة ما داخل الكشك:

- يا أم معاذ.. تحفظي عليها.. وابحثي معها عما يثبت هويتها...

ووقف خارجًا ينتظر.

سمعنا صراخ سيمين مع دخولها الكشك:

- مش من حقكم.. ابعدي عني.. إنتوا مش من حقكم تفتشوني.

ثم صوت المرأة:

- إهدي ياماما، ماحدش حيأذيكي.. اهدي بس...
- إوعي.. إبعدي...

أعقب ذلك صوت صراخ واستغاثة من المرأة.. لينطلق ذلك المقاتل إلى داخل الغرفة.. قال شيئًا باللهجة الشامية.. ثم سمعنا صوت ارتطام شديد بالأرض.. وساد الصمت.. قطعه صوت المرأة:

- بنت.. إنتي يا بت.. قومي.. ياهوي!!.. قومي يا..

ثم أجهشت في البكاء.

...

في سنِي ذروة قوتهم.. دأب المقاتلون الإسلاميون على نشر ملصق على الحيطان: "أخي، تذكر: الموت يأتي فجأة".. بالفعل.. الموت يأتي فجأة.. وليس هناك أكثر من هذه القضية؛ لتثبت هذه المفاجأة.. من بين ركاب التوكتوك الثلاثة في ذلك اليوم.. وربما من بين كل سكان المدينة.. كانت هي الأقل احتمالاً للموت...

...

أراني في التسجيل.. الموجود على المَعين الإلكتروني حتى الآن.. في الخلفية لافتة بلاستيكية ضخمة: (الذكرى الرابعة لشهيدة الحرية "سيمين طارق". أكتوبر ٢٠١٣ - يناير ٢٠٣٦).. منصة عالية يجلس خلفها ثلاثة من الرفاق.. بينما أنا واقفة أصرخ في الجماهير.. الجماهير التي سدت مدى البصر: "فاكرين السنين حتخلينا ننسى؟.. لأ طبعًا عمرنا ما حننسى.. أربع سنين أهو.. أربع سنين مروا وهما كل يوم بيصلوا لإلاههم إننا ننسى سيمين.. أربع سنين وإجرامهم بيزيد.. عشان عاوزين يقتلوها تاني كل يوم.. عاوزين يقتلوا الحرية..."... يتصاعد الغثيان القديم من أعماقي.. أبلع ريقي.. في التسجيل أراني أرشف من كوب ماء.. لأتغلب على الرغبة في القيء.. قبل أن أكمل:

"هما لما قتلوها مكانتش صدفة.. ومكانش مجرد تفتيش روتيني زي ما بيقولوا ويبرروا.. هما قتلوها عشان.. عشان يقتلوا الحرية اللي في عنيها.. عشان يقتلوا الرفض اللي واجهتهم بيه.. عشان يقتلوا الـ.. عشان يقتلوا الـ"لأ" اللي قالتها في وشهم.. لكن احنا.. احنا حنفضل هنا.. بنقول "لأ".. لأ..لأ.. لأ للإرهاب.. لأ للجهل.. لأ للظلام اللي عاوزين تعيشونا فيه.. لأ للقتل على الهوية..."... انفجر هتاف الجماهير:"لأ.. لأ.. لأ..."... وفي ذاكرة الفيديو انفجر الغثيان.. أمسك كوب الماء، ثم أتركه بتوتر دون أن أشرب... "لأ.. لأ.. لأ..."... ربما كانت هي المرة الوحيدة التي قالت فيها سيمين: "لأ".. لم يشفع لها هذا.. ولم يشفع لها بُعدها المزمن عن "السياسة".. رأسها الجميل لم يحتوِ إلا على حب الحياة.. حب الطعام والملابس الجيدة.. وحبها الفريد للأغاني القديمة.

في التسجيل لا زلت أتكلم.. أواصل الكذب باحترافية: "عمر كامل قضيته معاها.. وعارفة قد إيه كانت بتعاني لسنين منهم.. من ساعة ما ابتدوا يسيطروا على الشوارع وهي قعدت ليالي مكتئبة ومبتنامش.. بتكلمني عن شعورها بالبلد اللي بتضيع.. يوم ورا يوم سيمين عرفت طريقها.. عرفت إنها منّا.. وابتدت تحضر معانا اجتماعات الحزب.. وعشان كده.. لما شافوا الحرية اللي في عنيها.. خافوا.. الجبُنَا خافوا..."... أراني أهبط من المنصة فور انتهاء كلماتي مسرعة.. وسط الصراخ الهائج للجماهير.. وآسر يترك مكانه ويتبعني.

ساعتها انطلقتُ في الشارع الجانبي متجاهلة نداءات آسر.. وفي أحد الأركان المظلمة.. أخذت أفرغ ما في معدتي من ماء.. وعصارة.. يلحق بي آسر، ويمسك بكتفي.. التفت له:

- أنا بكدب.. كل اللي بقوله وبعمله ده خيانة ليها.. ما بقتش قادرة أبص في عين مؤيد ولا...
- قلت لك ميت مرة.. الخيانة الحقيقية إن دمها يضيع على الفاضي.. ده مش كذب ولا خيانة.. اللي بنعمله ده هو اللي حيجيب حق سيمين وغيرها.. ويخلص البلد من شر الإرهابيين.

لماذا يا سيمين؟.. لماذا في هذه اللحظة بالذات قررتِ أن تقوليها.. "لأ"

...

كلما أعاد التاريخ نفسه.. صار أكثر ابتذالًا..

في ذلك اليوم سمعنا صوت ارتطام بالأرض.. ثم صوت تلك الجهادية البدينة وهي تصرخ بها: "قومي يا بت".. وقبل أكثر من سبعين عامًا سمع المعتقلون في أحد سجون عبد الناصر صوت ارتطام جسم "شهدي عطية" بالأرض.. ليأتي تومرجي السجن ويصرخ به: "قوم يا وله.. خليك جدع يا وله"...

بعد سنوات أخرى.. كنت واقفة مع رفاقي من "قوات الدفاع عن الليبرالية" في حاجز أمني على مدخل المدينة.. مهمتنا التفتيش الروتيني

للسيارات الداخلة للمدينة.. اشتبه آسر - قائد الكمين - في إحدى الراكبات في سيارة أجرة قديمة.. فتاة لم تكمل العشرين.. يغطي خمارها الواسع جسدًا نحيلاً.. طلب هويتها؛ فأظهرتها له بوجه متجهم.. نظر فيها لثانية.. ثم طلب منها الترجل من السيارة.. رفضت في حسم.. ما كان منه إلا أن جذبها خارج السيارة بكل قوته.

أدخلها عنوة إلى كشك الكمين حيث كنت واقفة أراقب.. "فتشيها.. واحدة زي دي سهل تكون لابسة حزام ناسف".. ورغم ضعفها.. ظلت تقاوم جذبه لها بمنتهى العنف.. ثم نظرت لي بقوة لتقول: "ابعدي عني.. مالكمش دعوة بيا".. كانت في عينيها نظرة حادة.. نفس النظرة التي واجهت بها سيمين قاتلها.. وجدت نفسي أبتعد عنها.. أخذت أبتعد حتى خرجت من الغرفة.. غادرت الكمين.. وظللت أهيم على وجهي لساعات...

مؤيد:

مسلحو الكمين وهم يتبادلون الصرخات المتوترة بلهجات مختلفة.. رشاشاتهم المصوبة نحونا تتزايد.. تدفعنا دفعًا داخل التوكتوك.. اقتيادنا إلى معسكرهم الرئيسي.. ساعات الاحتجاز المليئة بالتوتر.. حتى في ذروة تلك الأحداث المجنونة كنت على يقين أنها.. بعيدة عن دائرة الموت...

...

أول لقاء لي مع سيمين كان في حفلة موسيقية صغيرة بأحد المراكز الثقافية بوسط البلد.. يومها عزفتُ على جيتاري الكهربائي سولو لـ "أنا

هويت" بتوزيع "مسار".. وكانت هي أكثر المصفقين حماسًا.. بعد نهاية الحفلة اقتربت مني بوجه أبيض وشعر فاحم: "هاي.. أنا سيمين..." عينان واسعتان طفوليتان.. أخذتني عيناها.. احتوتني...

- أنا عجبني قوي العزف بتاعك للشغل القديم.. السولو بتاع سيد درويش روعة.. حاسة إنك قلتها زي ما كان سيد درويش يقصدها بالظبط.
- بس أنا عمري ما سمعتها من سيد درويش.
- إيه ده؟!.. بجد؟!.. فاتك كتير.. صدقني.. أصل أنا بحب الشغل القديم في المزيكا قوي.. لازم تسمع الحاجات اللي عندي.. أكيد حتبهرك...

...

كان الموعد بعد يومين.. ما إن دخلت بيتي حتى أوصلت مَعينها الإلكتروني إلى الحاكي الرئيسي.. وأخذت تستعرض بحماس ما تملكه من أغان قديمة.. بالفعل وجدتُ العديد من الأغاني التي لا أعرفها.. وأخرى هي نُسخ أصلية لأغانٍ ذات نسخ أحدث...

- يعني مثلاً.. ممم.. دور أنا هويت.. اللي انت قلته على الجيتار.. آدي عندك.. سعاد محمد.. فيروز.. عبد الوهاب، وطبعًا سيد درويش نفسه...
- أنا سمعتها من فيروز.. ومن مسار...
- فيروز ومسار غنوا المذهب بس.. ماغنوش الغصن.. يعني مثلاً إسمع هنا...

صوت سعاد محمد.. غريب على أذني:

- "أحبه حتى في الخصام، وبعده عني يا ناس ما هوش حرام...".
- استنى.. حسمعها لك كمان من سيد درويش نفسه...

مع تشغيله ظننت أن في الأمر خطأ ما في الصوت.. انطلق صوت المغني القديم.. المسرسع.. ثوانٍ ولم أتمالك نفسي من الضحك:

- غريب.. غريب قوي.. حاجة كوميدية فعلاً...

لكن حين التفتُ لها.. وجدتها مطرقة للأرض بعينين مليئتين بالدموع.. طفلة حزينة وغاضبة.. اقتربت منها، ورفعت شعرها الذي هدلته إطراقتها...

- أنا كنت فاكرة إنه حيعجبك.. كان لازم يعجبك!

لمست ذقنها الدقيقة.. ورفعت وجهها.. نظرة.. ثم غرقنا في قبلة ناعمة.. وعميقة...

...

بعد ما حدث بيومين.. وصل لعائلة سيمين استدعاء من السُلطات.. ليقوموا بـ"مناظرة الجثة والتعرف عليها".. وحين ذهبت مع الأم والأخت.. فشلت كل محاولاتي لرؤيتها.. أجبرني الأمن على البقاء خارج المبني.. فيما بعد عرفنا أن السُلطات كانت تخشى من تسرب صور للجثمان واستغلالها دعائيًا.. دقائق قليلة قبل أن يعودا في حالة انهيار.

ربما لو أتيحت لي الفرصة لأرى الجثمان.. لأرى العينين الطفوليتين وقد أغلقتا على ابتسامة أخيرة.. ربما كنت اقتنعت أنها.. قد.. ماتت حقًا.

...

بعد سنوات.. لا أذكر متى بالضبط.. لكن المؤكد أننا كنا في نهاية حقبة "المقاتلين".. أذكر أني استيقظت على دوي رصاص بعيد.. وأناشيد جهادية من المعسكر المجاور لمنزلي.. مددت يدي بعينين مغمضتين.. فلم أجد تاليا إلى جواري.. وحين اكتشفت – في فزع – أنها ليست في الشقة في هذا الوقت المبكر.. حاولت الاتصال بها.. مئات من المحاولات إلى أن ردت:

- إنتي فين؟!.. إيه اللي نزلك والبلد مولعة كده؟!
- إنت حيوان.. مجرد حيوان غبي وأناني ومريض ولا يمكن تتغير.. إنت ما تستحقش الـ...
- أنا مش بقولك أنا إيه.. أنا بقول لك إنتي فين؟.. حتفضلي مجنونة كـ....
- إنت اللي مجنون.. مجنون رسمي ومحتاج تتعالج. سيبني بقى أعيش حياتي.. أنا عاوزة أعيش حياتي أنا.. مع حد عايش.. مش عايزة أعيش مع واحدة ميتة...
- اسكتي.. اسكتي...
- كنت لسه في حضنك.. وبعدها تقول إسمها هي أول ما تنام؟!
- ...

...

كنا في الشارع حين لاحظت نظراتها للمقاتلين ونسائهم.. كانت تنظر لهم وتتابعهم وهم يجوبون الشوارع.. كلما رأت أحدهم يمشي في الشارع تظل تتابعه ببصرها بتركيز حتى يختفي...

- مالِك بتبصي لهم قوي كده ليه؟!
- شكلهم وحش قوي.

تلعثمت قليلًا قبل أن تكمل:

- قبح.. قبح كبير.. عارف ليه أنا بحب الأغاني والحاجات القديمة؟
- عشان جميلة.
- صح.. أنا قلت لك قبل كده.. الأيام القديمة كانت مليانة جمال.. الجمال اللي زي مايكون اتسرق من أيامنا دي.. عمرك شفت في الصور القديمة حد عامل دقنه طويلة بالشكل ده؟!.. عمرك شفت واحدة لابسة نقاب؟!.. وكلامهم وتصرفاتهم كلها غباء وكره.
- بس الـ...
- ساعات بحس إن ماهي عندها حق.. المفروض نحاربهم.. نحارب القبح بتاعهم بأي تمن...

...

ماهي.. كلما جمعتني بها الصدفة.. تهربت عيوننا من اللقاء.. خصوصًا حين تكون تاليا بصحبتي.. ورغم ذلك أشعر دومًا بنظرتها اللائمة تخترق

ظهري.. نظرة "نسيتها؟!!.. كيف؟!".. ساعتها أنظر إلى تاليا فلا أجد سوى الفراغ.

حين أسترجع الأحداث أصل دومًا لنفس اللحظة.. أتوقف عندها.. وأستعيدها عشرات.. مئات المرات.. اللحظة التي جذبها فيها ذلك المقاتل المجنون من التوكتوك.. والتف حولنا رجاله ليهددونا بالسلاح.. حين استمر في جذبها بعيدًا.. حاولتُ المقاومة والخروج من التوكتوك.. لكن أحدهم ضربني على رأسي بكعب بندقيته.. غامت الدنيا أمام عيني.. وسقطتُ على الأرض.. أخذت أتابع ما يحدث بصعوبة.. فشلت كل محاولاتي للوقوف.. لكن حين سمعت صوت الارتطام بالأرض.. قفزتُ.. ناديتها.. صرختُ.. لكنهم اجتمعوا عليَّ.. كبلوني واقتادوني بعيدًا.. أسترجع الأمر دومًا.. ضربة واحدة؟!.. ضربة واحدة كانت كافية لتكومني على الأرض؟!.. لو استجمعت نفسي ساعتها.. وقاومتهم أكثر.. كنت شغلتهم عنها.. وكنت أنقذتها.. حتى لو قتلوني أنا.

...

أذكرها دومًا.. وهي منطلقة بالتوكتوك ساعة الغروب.. في نفس اليوم.. وربما قبل دقائق من... وجهها مشبع بالبهجة.. وعبر سماعات التوكتوك يأتي صوت "أم كلثوم" القديم.. تغني معه هي بصوتها الرائق: "رق الحبيب.. وواعدني.. يوم...".

وشعرها الجعد الأسود.. يتطاير في الهواء...

أبو عبد الرحمن:

"وَمَا تَدْرِي نفس بأي أرض تموت"...

والله لو قيل لي قبل بضع سنوات إني سأكمل ما بقى من حياتي هنا ما صدقت.. لكن الله يفعل ما يريد.. سنوات من القتال بين مصر والشام والحجاز.. لينتهي بي الأمر هنا.. "الأحواز".

أهل "الأحواز" عرب مسلمون.. عرب بمسحة فارسية أتت من مجاورتهم للفرس الروافض على مدى قرون.. لم أجد على سيماهم سوى التبسم، ولم يألوا جهدًا في إرضائي.. سنة مضت منذ جئت.. سنة مضت لكن.. لم أسطع أن أمد جذوري في هذه الأرض.

...

ربما كنت آخر من بقى في هذه الحياة ممن شهدوا ذلك اليوم.. يوم "سيمين".. سنين حرب الشوارع قتلت الكثير من المقاتلين.. سنين حرب الشوارع تلك لم تقض فقط على الأجساد.. بل قضت على عقائد وأفكار.. من المقاتلين من قضى نحبه.. ومنهم.. من بدلوا تبديلًا...

...

في ذاك الوقت كانت هناك فئتان من المقاتلين.. أبناء القطر نفسه.. والوافدون من أقطار أخرى.. ورغم عظات الشيوخ وأوامر القادة التي تمنع أي تفرقة.. وتؤكد أن الأخوة الحقة هي أخوة الدين.. لا أخوة الدم

ولا الوطن.. رغم ذلك ظلت الفجوة بين الطرفين موجودة.. ما أصعبها على ابن البلد أن يعمل ويشارك قوته وسلاحه.. بل ويَأتمر بأمر وافد غريب.

كان "أبو حُذيفة" – قائد الكمين – أحد هؤلاء الوافدين.. أتي مع مجموعة من إخوانه بعد سنوات من القتال في الشام.. لم نعرف لهم بلدًا.. إن سألت الواحد منهم رد: بلدي الإسلام.. وفي الكمين كانت كل سيارة تمر بالنسبة لهم هي دبابة.. وكل فرد هو عدو انتحاري أتى ليفجر نفسه.. وجوههم متجهمة، وأسلحتهم مرفوعة وجاهزة للإطلاق دومًا.. قبل الحادث بثلاثة أيام، صفع أحدهم شيخًا كبيرًا لمجرد أنه رفض أن يرفع عباءته للتفتيش.. وحين اعترضنا صرخ فينا أبو حُذيفة: "أنتم لم تروا حيل الروافض يا بلهاء.. أكبر منه فجروا أنفسهم وقتلوا عشرات المقاتلين...".

بعد هذا الموقف رفعت الأمر للقيادة طالبًا استبعادهم من الكمين حفاظًا على السلم مع أهل المنطقة.. لكن لم يُبت في طلبي، حتى قضى الله الأمر...

...

أبو حُذيفة.. لماذا اشتبه في الفتاة؟.. وكيف سقطت ميتة؟.. هو الوحيد الذي يملك مفتاح السر.. لكن.. من بعد الحادث لم يعط أي كلمة.. لم يعط سوى نظرات طويلة غير مكترثة.. وجلسة عاجزة بعيدًا عن الجميع.

لم تمض عدة أيام حتى اختفى أبو حُذيفة.. تلاشى.. قام فجأة، وسار مبتعدًا عن الكمين.. ظنناه ذاهبًا لقضاء حاجة.. لكنه لم يعد أبدًا.. ولم تظهر له جثة.. ليضيف سرًا آخر بلا مفتاح...

...

حين رأيت جثمانها.. كان بهاء الحياة لم يفارقها.. بدت نائمة.. لا أثر فيها إلا كدمة زرقاء في مقدمة جبهتها – على عكس ما روي أنها سقطت على ظهرها – وبدت على وجهها ابتسامة كبيرة وهادئة.. نفس الابتسامة التي كنا نقول دومًا إنها ترتسم على وجوه الشهداء.. والصالحين.

...

تغير شيء فيّ من بعد ذلك اليوم.. ورغم كل ما قيل من القادة والمشايخ على المنابر.. وعبر المَعين الإلكتروني.. عن كونها جاسوسة كافرة استحقت مصيرها.. فإن قلبي أنكرهم.. ووقرت فيه براءتها.. ووقر فيه أنه حتى وأنت في جانب الحق.. فإنك قد تقتل أبرياء لا ذنب لهم.

مع السنين.. مع مئات الليالي الباردة التي تقضيها في الأكمنة أو الخنادق.. أو وسط خرائب مدينة خاوية.. يغدو كل ما تحارب من أجله فكرة.. فكرة بعيدة يصعب الإمساك بها.. حين تسترجع جثث الرصاص والانفجارات والعمليات الانتحارية.. تكتشف أن ليس هناك فكرة تستحق الموت لأجلها.. على الإطلاق.

...

في كل ليلة.. قبل أن أنام.. أقرأ الفاتحة ثلاث مرات.. الأولى لأبي حُذيفة.. والثانية لسيمين.. والثالثة.. لي...

لبنى:

قيل إن "سيمين" بالفارسية تَعنى "أبيض" أو "فضة".. بيضاء.. لكن الحق أننا حين اخترنا الاسم لم نكن نعرف المعنى...

في ذلك اليوم.. حين عدت من الخارج وفي حقيبتي المغلف الكرتوني الأنيق الذي يحمل الخبر الأهم.. الحمل.. وجدتُ "طارق" جالسًا في الظلام.. لا يضيء الشقة سوى الشاشة التي تعرض الفيلم الحاصل لتوه على الأوسكار "انفصال نادر وسيمين".. جلستُ إلى جواره.. أسندت رأسي إلى كتفه.. وأخبرته.. ساعتها.. وبعدما احتضنني بوجه دامع.. قالها:

- حتطلع بنت.. وحسميها سيمين.. عشان تطلع حلوة وقوية.. زي بطلة الفيلم ده...
- ولو ولد؟ حتسميه نادر مثلاً؟!
- حتطلع بنت.

...

في أيام القبح.. صار "التوكتوك" هو وسيلة الانتقال الأساسية.. وصارت السيارات بمختلف أنواعها ذكرى حلوة من زمن بعيد.. ما بين الاستيراد المتوقف والأسعار النارية والطرق المتهالكة.. صار التوكتوك هو القاعدة.. ومع إنهائها لدراستها والتحاقها بعملها الجديد.. نفذ طارق

وعده، واشترى لها أحد هذه المسوخ ثلاثية العجلات.. أما هي فكانت ترغب في "موتوسيكل".. لكن طارق:

- التوكتوك أمان أكتر.. حتى لو أغلى مش مهم.. المهم إنه أمان.

تمر الأيام لتتطور الدنيا.. لكن لا ترتقي.. يتطور القبح أكثر.. لتزداد أيام القبح.. قبحًا...

...

في يوم ما.. بعد إصابته بالجلطة الثانية.. ناداني طارق بنطقه المتكسر.. حين اقتربت منه وأمسكت بيده السليمة.. اندفع في حديث متكسر لاهث:

- أنا.. أنا اللي قتلتها.. سيمين.. الاسم الغريب.. خلاها بنت موت.. هو.. هو الاسم الغريب اللي خلاهم شكوا فيها.. وقتلوها.. أنا.. أنا...

لا أذكر أنه تكلم مجددًا.. حتى نطق اسمها فجأة.. وأغلق عينيه على ابتسامة.. أخيرة.

سيمين:

في آخر تسجيل مرئي على مَعينها الإلكتروني.. تظهر وفي الخلفية حوائط منزلها الأنيقة.. ابتسامة تزيدها إشراقًا.. وجه حليبي وشعر ناعم وثقيل.. لامع كما لو كان مغسولًا للتو.. ترتدي ثوبًا منزليًا فاتحًا.. تنظر للكاميرا.. وتغني بصوت مشرق كابتسامتها: "شفت حبيبي وفرحت معاه.. ده الوصل جميل.. حلو يا محلاه.. ده الوصل جميل.. حلو يا محلاه..."

الفهرس

في رواية أخرى للفلاح الفصيح........ ٧
الطواشية........ ١١
غذاءُ الملكِ........ ١٧
مدرسةٌ خاصةٌ........ ٢١
التنين........ ٢٥
سوشي........ ٢٩
هيستريونيك........ ٣٥
دراساتٌ اجتماعيةٌ........ ٤٧
كشفٌ مبكرٌ........ ٥٩
لقاءٌ آخرٌ........ ٦٩
الأجرةُ المقررةُ........ ٧٥

في مديح الجاموسِ الأبيضِ........................ ٧٧
هوامش على دفتر الفتة........................ ١٠٥
رعاية صحية........................ ١١١
التابعون........................ ١١٥
الإنكشارية........................ ١٢٥
دعونا نتحدث عن سيمين........................ ١٣٣
الفهرس........................ ١٥١

أحدث ما صدر من السلسلة

(الإصدار الرابع بدأ في سبتمبر ٢٠١٦)

م	الكتاب	الكاتب	نوع العمل	التاريخ
١	فعل الرواية	حمادة نجيب	دراسة	يونيو ٢٠٢١
٢	مادلين بنت الستين	أحمد النحاس	قصص	يوليو ٢٠٢١
٣	بريق باهت	دينا ممدوح	قصص	أغسطس ٢٠٢١
٤	أساطير ومكابدات	وليد صابر شرشير	شعر فصحى	سبتمبر ٢٠٢١
٥	أوتار مشدودة	ناهد بدوي	قصص	أكتوبر ٢٠٢١
٦	القصة القصيرة جدًا في مصر	أميرة عبد الشافي	دراسة	نوفمبر ٢٠٢١
٧	رقصُ مصَّاصي الدِّماء	محمد ربيع حماد	قصص قصيرة جدًا	ديسمبر ٢٠٢١
٨	عقرب لم يكتمل	إسراء سيف	قصص	يناير ٢٠٢٢
٩	الحلم الأرجواني	أمنية نجيب	قصص	فبراير ٢٠٢٢
١٠	مش لاعب	عماد عبد الحكيم	شعر عامية	مارس ٢٠٢٢
١١	جريمة في بُعد آخر	فاطمة وصفي	رواية	أبريل ٢٠٢٢
١٢	أحلام الأزل	إسماعيل وهدان	قصص	مايو ٢٠٢٢
١٣	مع سبق الإنذار والتوعد	هناء الوصيف	شعر عامية	يونيو ٢٠٢٢

١٤	رُسُل الأَقْدار	عُمر سُليمان القَشوطي	رواية	يوليو ٢٠٢٢
١٥	سيروجا	مارينا سامح	قصص	أغسطس٢٠٢٢
١٦	رائحة كريهة تسبب القتل	حاتم ممدوح	قصص	سبتمبر ٢٠٢٢
١٧	بُكَاءُ عُمْلَةٍ مَعْدِنِيَّةٍ	محمد الرفاعي	شعر فصحى	أكتوبر ٢٠٢٢
١٨	بطل من مجاز	يحيى خليفة	شعر عامية	نوفمبر ٢٠٢٢
١٩	فرح نادية	مصطفى السباعي	قصص	ديسمبر ٢٠٢٢
٢٠	سأترك للصحراء قافلتي	عصام سامي ناجي	شعر فصحى	يناير ٢٠٢٣
٢١	بعد النهاية	ندى يسري	قصص	فبراير ٢٠٢٣
٢٢	الغاوون	عبد الرحمن حبيب	شعر فصحى	مارس ٢٠٢٣
٢٣	لا أسمع صوتي	تيسير النجار	قصص	أبريل ٢٠٢٣
٢٤	مرسوم بلون خفيف	إبراهيم رفاعي	شعر عامية	مايو ٢٠٢٣
٢٥	طيفٌ عابرٌ يحاولُ أنْ يَشِبَّ	مروة مجدي	شعر فصحى	يونيو ٢٠٢٣
٢٦	دايمًا في الليل	محمد خالد الشرقاوي	شعر عامية	يوليو ٢٠٢٣
٢٧	مطاوع	أحمد قشوة	رواية	أغسطس٢٠٢٣
٢٨	والريح تهتك حكمة الأبواب	عبد النبي عبادي	شعر فصحى	سبتمبر ٢٠٢٣